

السُّنَنُ التَّيَمُّنِيَّةُ الْعَدَدُ ١٥

لابرّهاسيم بن المدبر

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب في القرن الثالث

بقلم

الدكتور زكي مبارك

رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية
وأستاذ بالليسيه فرانسيسه بالقاهرة

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

السنة الثامنة والعشرون

لابر هاسيم بن المدبر

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب في القرن الثالث

بقلم

الدكتور زكي مبارك

رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية
وأستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

كلمة وبيزة

تلك الرسالة العذراء

أقدمها للقراء بعد أن شغلت نفسي بها عاما كاملا : فصحتها
وضيبتها، وقابلت أصولها على ما كتب من نوعها في فن الإنشاء .
وكان في النية أن أكتب لها مقدمة بالعربية، ولكنني اكتفيت
بذلك البحث المفصل الذي كتبه بالفرنسية عن فن الإنشاء
في القرن الثالث، وشرحت به آراء ابن المدبر، وابن درستويه،
والصولي، وابن عبد ربه، والجاحظ .

وهذه الدراسات قدمت في الأصل لمدرسة اللغات الشرقية
في باريس لنيل "دبلوم الدراسات العليا في الآداب" وقد عرضت
لها بشيء من التعديل بعد أن انتفعت بملاحظات الأساتذة
في يوم الامتحان .

وفي البحث الفرنسي بعض الخروج على الحدود التي رسمها
الأستاذ وليم مرسيه . واني لأعتذر اليه : فقد رأيتني مضطرا
الى مخالفته، وإن كنت أضمر له في نفسي أسى آيات الإعزاز،

فقد يفنى كل شيء وتبقى ذكريات الساعات الطيبة التي قضيتها معه في تحقيق أصول "الرسالة العذراء" .

وهذا البحث في جملته تمهيد لكتابي الذي وضعته بالفرنسية عن "النثر الفني في القرن الرابع" وقدمته الى جامعة باريس .



وانتهز هذه الفرصة فأقدم أسمي التحيات الى المستشرقين الفرنسيين الأساتذة : مرسيه، وديمومين، وماسينيون، وكولان؛ الذين انتفعت بعلمهم في باريس .

وأتشرف بعد ذلك باهداء هذا البحث الى الدكتور سنوك هوجرونيه المستشرق الهولندي الذي وضع في سنة ١٩٢٦ بحثا وافيا بالهولندية عن كتابي "الأخلاق عند الغزالي" فشرفتي كل التشريف ورفع قدرى بين المستشرقين ما

زكى مبارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فتقى الله بالحكمة ذهنك ، وشرح بها صدرك ، وأنطق بالحق لسانك ، وشرف به
(١) بيانك . وصل الى كتابك العجيب الذى استفهمتنى فيه بجوامع كلمك جوامع أسباب
البلاغة ، وأستكشفتنى عن غوامض آداب أدوات الكتابة ، سألتنى أن أقف بك
(٢) على وزن عدوية اللفظ وحلاوته ، وحدود نخامة المعنى وجزالته ، ورشاقة نظم
الكتاب ومشاكلته سرده ، وحسن افتتاحه وختمه ، وانتهاء فصوله ، واعتدال وصوله ،
وسلامتهما من الزلل ، وبعدهما من الخطل ، ومتى يكون الكاتب مستحقا اسم الكتابة ،
والبليغ مساهما له معانى البلاغة فى إشارته واستعارته ، وإلى أى أدواته هو أحوج ،
(٣) وبأى آلاته هو أعمل ، إذا حصص الحق ، ودعى إلى السبق ، وفهمته .
(٤) (٥)

(١) الابتداء بالدعاء على هذا النحو كان مألوفا فى القرن الثالث ، ويشبه هذا ابتداء الجاحظ حيث
قال : ”جنبتك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسيبا ، وبين الصدق سببا ،
وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع
صدرك برد اليقين ، وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الذلة ، وما فى الجهل من القلة “ .
مقدمة الحيوان طبع سنة ١٣٢٣ بالقاهرة . (٢) نلاحظ أن الكاتب عدى الفعل : « استفهم »
بنفسه ، وعدى : « استكشف » بالحرف ، وقد نص الفيروزابادى على تعدية الفعل الثانى وسكت عن
الأول . (٣) لعل الصواب «وعبارته» لأنها أنسب ولأن المؤلف لم يفرد الاستعارة بكلام خاص .
(٤) جملة : « إذا حصص الحق » لا حاجة إليها ولكن دعا إليها السجع والمضى فى المزاج .
(٥) جملة : « وفهمته » وقعت بعيدة عن الكتاب ، وإيجازها بعد ذلك الاطناب يشعر القارئ بنىء
من الوحشة . وقد وقع هذا التعبير بعينه فى مقدمة رسالة الجاحظ عن أخلاق الكتاب إذ قال : « قد
قرأت كتابك ، ومدحك أخلاق الكتاب وفعالهم ، ووصفك فضائلهم وأيامهم ، وفهمته » ص ٤٠ من
« ثلاث رسائل للجاحظ » طبع القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ . وكلمة الجاحظ « مدحك أخلاق الكتاب »
وردت هناك « مدحك » والأصوب ما أبتناه ليصح التوازن مع قوله بعد ذلك : « وصفك فضائلهم » .

وأنا راسم لك — أيدك الله — من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك ، ويعبر عن جملة
سؤالك ، وإن طوّت في الكتاب وعرضت ، وأطّبت في الوصف وأسهب ،
ومستقص على نفسى في الجواب على قدر استقصائك في السؤال ، وإن أخلّ به
التيات الحال ، وسكون الحركة ، وفتور النشاط ، وانتشار الروية ، وتقسيم الفكر ،
واشتراك القلب ، والله المستعان .^(٢)

(١)

إعلم — أيدك الله — أن أدوات ديوان جميع المحاسن وآلات المكارم طاعة منقادة^(٣)
لهذه الصناعة التي خطبتها وتالية تابعة لها وغير خارجة الى جحد أحكامها ولا دافعة
لها يلزمها الإقرار به لها إضرارا منها إليها وعجزا عنها ، فإن تقاضت نفسك علمها
ونازعتك همتك الى طلبها فاتخذ البرهان دليلا شاهدا والحق إماما قائدا يقرب مسافة
ارتدادك ويسهل عليك سبل مطالبها ، وأستوهب الله توفيقا تستنجح به مطالبك ،
وأستمنحه رشدا يقبل إليك بوجه مذاهبك . فاقصد في ارتدادك ، وتأمل الصواب
في قولك وفعلك . ولا تسكن الى جحد قصد السابق بالجحاح ، ولا تخرج الى إهمال
حق المصيب بالمعاندة والانكار ، ولا تستخف بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها ،
فترحل نافرة عن مواطنها من قلبك ، وتظعن شاردة عن مكانها من بالك ، وتنعفى
بعد العارة من قلبك آثارها ، وتنظمس بعد الوضوح أعلامها .

(١) عرضت : جعلته عرضا وهو تعبير قليل الوقوع . وفي مثله قال موسى بن الطائفي الأندلسي :

يا مبصر عميت نواظر فهمه * عن كنهه عرضي في البديع وطول

ص ١٤٣ ج ١ ذخيرة

(٢) هذه العبارة تفههما أن المؤلف وضع هذه الرسالة في وقت لم يكن أنسب الأوقات للتأليف . ولكن
ينبغي أن نلاحظ أن مثل هذه الشكوى وقعت لكثير من المؤلفين حتى كادت تصير فيما بعد جزءا من المقدمات .

(٣) « طاعة » مؤنث طاع بمعنى طابع .

(٢)

وأعلم أن الإكتساب بالتعلم والتكلف ، وطول الاختلاف إلى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء ، فإن أردت خوض بحار البلاغة ، وطلبت أدوات الفصاحة ، فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه : في تلقيح ذهنك ، وأستنتاج بلاغتك ، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار ، والسير والأسمار ، ما يتسع به منطقتك ^(١) ، ويعذب به لسانك ، ويطول به قلمك .

(٣)

وأنظر في كتب المقامات والخطب ، ومحاورات العرب ، ومعاني العجم ، وحدود المنطق ، وأمثال الفرس ورسائلهم ، وعهودهم وتوقيعاتهم ، وسيرهم ومكائدهم في حروبهم ، بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط ككتب السجلات والأمانات ، فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب ، وتمهراً في نزع آي القرآن في مواضعها ، واجتلاب الأمثال في أمثالها ، واختراع الألفاظ الجزلة ، وقرض الشعر الجيد ، وعلم العروض : فإن تضمين المثل السائر ، والبيت الغابر ، مما يزين كتابتك ، ما لم تخاطب خليفة أو ملكاً جليل القدر ، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والحلّة الرؤساء عيب واستهجان للكتب ، إلا أن يكون

(١) في الأصل « الأسماء » وهو تحريف . (٢) المقامات جمع مقامة وهي في اللغة المجلس . وفي القرآن : « أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » سورة مريم آية ٧٢ وفي شعر زهير :

وفيهم مقامات حسان وجودهم * وأندية يتأهبها القول والفعول

ثم تطورت بالاستعمال فصارت تدل على ما يقع في الأندية من طرف المحاورات ، وفي هذا المعنى استعملها مؤلف الرسالة أعلاه ، ثم خصصت في كلام بديع الزمان ومن حاكاه نصارت اسماً للقصة القصيرة المسجوعة . (٣) في العقد : « الغريب » وهي اللفظة المستعملة في مثل هذا المقام .

الكاتب هو القارض للشعر والصانع له ، فان ذلك مما يزيد في أجهته ، ويدل
(١)
على براعته . وإن شدوت من هذه العلوم ما لا يشغلك محلّه ، وتنقبت من هذه الفنون
(٢)
ما تستعين به على إطالة قلمك ، وتقويم أود بيانك .

(٣)
بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة ، حلو الشئائل ، عذب الألفاظ ، دقيق
الفهم ، حسن القامة ، بعيدا من الفدّامة ، خفيف الروح ، حاذق الحس ، محمكا
بالتجربة ، عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما ، وبالمملوك وسيرها وأيامها ،
وبالدهور في تقلبها وتداولها ، مع براعة الأدب ، وتأليف الأوصاف ، ومشكلة
الاستعارة ، وحسن الإشارة ، وشرح المعنى بمثله من القول ، حتى ينصب صورا
(٤)
منطقية تعرب عن أنفسها ، وتدل على أعيانها ، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات
الكاتب طول القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم ، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ،
(٥)
ولطف المذهب ، وحلاوة الشئائل ، وملاحاة الزمى ؛ حتى قال بعض المهالبة لولده :

(١) بمناسبة تضمين الأبيات قال صاحب صبح الأعشى : « الاستشهاد أن يورد البيت من الشعر
أرالبين أو أكثر في خلال الكلام المنشور مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر ، ولا يشترط فيه أن ينه عليه
بقال ونحوه كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية ، فان الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن
غيره من أنواع الكلام فلا يحتاج الى التنبيه عليه ، وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات الإخوانيات »
ص ٢٧٤ ج ١ طبع دارالكتب المصرية .

(٢) لم يذكر الكاتب جواب الشرط .

(٣) في الكلام التفتات من المخاطب الى الغائب .

(٤) في الأصل "تنصب" بالناء المنناة من فوق .

(٥) الربط غير موجود بين هذا الكلام وما قبله ، لأن ما قبله خاص بأجادة المعاني وهذا خاص
بالصفات الجسمية للكاتب . وعبارة العقيد : « من صفة الكاتب اعتدال القامة ... الخ » . وليلاحظ
أن هناك «اعتدال القامة» وهنا «طول القامة» . (٦) جمع لظزمة وهي عظم ينبت تحت الأذن .

تزيّوا بزىّ الكتاب ، فإن فيهم أدب الملوك وتواضع السوقة ^(١) . [ومن كمال آلة
الكتاب أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ،
دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشى اللسان ، حلوا الإشارة ،
دليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستفهر المركب ، ولا يكون مع ذلك فضفاض
الجلثة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة ، فانهم زعموا أن هذه الصورة
لا يليق بصاحبها الذكاء والفظنة ^(٢)] .

(١) كان الكتاب يجلون في ملبسهم حتى صحت فيهم هذه العبارة . وكان لمزى خاص ، قال الثعالبي :
« وكان في جملة الطارئين على الصاحب شيخ أنطاكى في زى الكتاب حسن البيان ظريف اللهجة » ص ٥٣
ج ٣ يتيمة . وكانوا معروفين بحلاوة الشائل ، وأشد صاحب صبح الأعشى (ص ١١٥ ج ١٤) :
وشول كأنما اعتسروها * من معانى شمائل الكتاب

... وقال ابن بسام يصف عبد الرحمن بن حزم وفضله على ابن عمه أبي محمد ابن حزم (كان أئبه من أبي محمد
في حضور شاهده وذكاء خاطره وحسن هيئته وبراعة ظرفه وجودة أدبه) أنظر الذخيرة ج ١ ص ٦٣
مخطوط بدار الكتب المصرية .

وقد أشار ابن قتيبة الى أزياء الكتاب في عيون الأخبار ج ١ ص ٤٦ وعرض لهم الجاحظ في رسالته
ذم أخلاق الكتاب فأبان أنهم كانوا يهتمون بتعريض الجبة وتطويل الذيل . انظر ص ٤٢ من ثلاث
رسائل للجاحظ طبع القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .

وقد أعطانا ياقوت بعض التفاصيل عن لباسهم فذكر أنهم كانوا يلبسون الطيلسان أو الدراعة . وانظر
قوله (قال ابن عبد الرحيم : كان البتي في بدء أمره يلبس الطيلسان ... ثم لبس من بعد الدراعة وسلك
في لبسه مذاهب الكتاب القدماء ، وكان يلبس الخفين والمبطنة ، ويتعمم العمة الثغرية ، وإن لبس لابلجة
لم تكن إلا مر بديه ، وكان لا يتعرض لحلق شعره جريا على السنة السالفة .) ص ٢٣٤ ج ١ — وعرض
المقدسي أيضا لأزياء الكتاب في كتابه أحسن التتاسيم ص ٤٠٤ ج ١ — ويظهر من كلام الجاحظ
في البيان والتبيين أنه كان لكل طبقة من الكتاب زى خاص . انظر ص ٦٠ ج ٣ . والتفاصيل التي أعطاها
صاحب العقد عن أصناف الكتاب تحتم ذلك : فقد كان لكل صنف ثقافة خاصة به فن المعقول أن يكون
لكل طبقة زى خاص بها ليسا كل الوسط الذى تعيش فيه .

(٢) زيادة عن نهاية الأرب ج ٧ ص ١٢

(٥)

وخاطب كلا على قدر أهيته وجلالته ، وعاؤه وأرتفاعه ، وتفطنه وأنتباهه .^(٢)
وأجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام : فأربعة منها للطبقة العلوية ، وأربعة^(٣)
دونها ، ولكل طبقة منها درجة ، ولكل قسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصر^(٤)
بأهلها عنها ، ويقلب معناها إلى غيرها : فالطبقة العليا الخلافة التي أعلى الله شأنها^(٥)
عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسل .
والطبقة الثانية الوزراء والكتاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم ، ويرتقون
الفتوى بأرائهم ، ويتجملون بأدبهم . الثالثة أمراء ثغورهم ، وقواد جيوشهم ،
يخاطب كل أمرئ منهم على قدره وبما حمل من أعباء أمورهم ، وجلائل أعمالهم .
الطبقة الرابعة القضاة ، فانهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء ، فمعهم
أبهة السلطنة وهيبة الأمراء .^(٦)

(١) عبارة العقد الفريد : « اذا احتجت الى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكاتب والمخطباء
والأدباء والشعراء وأوساط الناس وسوقهم فخاطب كلا على قدر أهيته . الخ .

(٢) في العقد : « وفطنته » .

(٣) عبارة العقد : « منها الطبقات العلية أربع ، والطبقات الأخرى وهي دونها أربع »

(٤) عبارة العقد : « فالحد الأول الطبقات العليا وغايتها القصوى الخلافة » .

(٥) عبارة العقد : « التي أجل الله قدرها » .

(٦) بمناسبة المكتوب إليه قال ابن قتيبة في أدب الكاتب : « ونستحب له أيضا أن ينزل ألفاظه

في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه وألا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس
وضيع الكلام ، فإن رأيت الكتاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخاطوا فيه فليس يفرقون بين من يكتب
إليه : « فأريك في كذا » وبين من يكتب إليه : « فإن رأيت كذا » . ورأيك إنما يكتب بها للأكفاء
والمساوين ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأساندة لأن فيها معنى الأمر ولذلك نصبت .

ولا يفرقون بين من يكتب إليه : « وأنا فعلت ذلك » وبين من يكتب إليه : « ونحن فعلنا ذلك » .

نحن لا يكتب بها عن نفسه إلا أمر أو ناه لأنها من كلام الملوك والعلماء . ص ١٥ طبع سنة ١٣٤٦ هـ .

أما الطبقات الأربع الأخرى : فالملوك الذين أوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب وأفضالهم تفضيلهم فيها . والثانية وزراءهم ، وكاتبهم ، وأتباعهم الذين بهم تفرع أبوابهم ، وبعنايتهم تستباح أموالهم . والثالثة هم العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة أهله . والرابعة لاهل القدر والجلالة والظرف ، والخلوة والعلم والأدب ، فانهم يضطرونك بجملة أذهانهم ، وشدة تمييزهم وانتقادهم ، [وأدبهم وتصفحهم] الى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم .

(٦)

واستغنيانا عن الترتيب للتجار والسوقة والعوام رتبة لاستغنائهم بتجارهم عن هذه الآلات ، واشتغالهم بمهماتهم عن هذه الأدوات . ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن تراعيها في مراسلتك إليهم في كتبك ، وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه ، وتعطيه قسمه ، وتوفيه نصيبه ، فإنك متى أضعت ذلك لم آمن بك أن تعدل بهم غير طريقهم ، [وتسلك بهم غير مسلكهم] وتجري شعاع بلاغتك في غير مجراه ، وتنظم جوهر كلامك في غير سلكه . فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا لا تقا بمن كاتبته ، ومشابها لمن راسلته . فان إلباسك المعنى ، وإن شرف وصلاح ، لفظا مختلفا عن قدر المكتوب اليه لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى ، وإخلال

(١) في العقد : « أهل القدر » . (٢) عبارة العقد : « والجلالة والخلوة والظلاله والظرف والأدب » . (٣) زيادة عن العقد . (٤) في العقد : « تراها في مراسلتك إليهم في كتبك » . (٥) في العقد : « متى أحملت ذلك » . (٦) في العقد : « لم آمن عليك » . (٧) في العقد : « عن » . (٨) زيادة عن العقد . (٩) في الأصل : « فلا يفيد المعنى » وقد آثرنا عبارة العقد لأنها أدق . (١٠) في الأصل : « وان إلباسك » وقد اخترنا رواية العقد ، لأنها أظهر في ربط الكلام .

بقدره ، وظلم لِحَقِّ المكتوب إليه ، ونقص مما يجب له ، كما أن في اتباع تعارفهم ،^(١)
وما اندشرت به عاداتهم ، وجرت به سنتهم ، قطعاً لعذرهم ، وخروجاً من حقوقهم ،^(٢)
وبلوغاً الى غير غاية مرادهم ، وإسقاطاً لِحجة أدبهم .^(٣)

^(٤) فن الألفاظ المرغوب عنها ، والصدور المستوحش منها في كتب السادات
والأمرء والمملوك ، على اتفاق المعاني ، مثل : ” أبقاك الله طويلاً وعمرك ملياً ” ،
وإن كنا نعلم أنه لا فرقان بين قولهم : ” أطال الله بقاءك ” ، وبين قولهم : ” أبقاك
الله طويلاً ” ،^(٥) ولكنهم جعلوا هذا أرجح وزناً ، وأنبه قدراً ، في مخاطبة المملوك ، كما أنهم
جعلوا ” أكرمك الله وأبقاك ” أحسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء ، من ” جعلت
فداك ” ، على اشتراك معناه ، واحتماله أن يكون فداء من الخير كما يكون فداء له من
الشر . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاص : ” فداك
أبي وأمِّي ” ،^(٦) لكرهت أن يكتب بها أحد . على أن كتاب العسكر وعوامهم قد أولعوا
بهذه اللفظة حتى أستعملوها في جميع محاوراتهم ، وجعلوها هجيراًهم في مخاطبة
الشريف والوضيع ، والصغير والكبير ، ولذلك قال محمود الوراق :

(١) في الأصل « امتناع » وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « وضعا لقدرهم » والتصويب عن العقدة .

(٣) كلمة « غير » لا لزوم لها هنا ، وهي من زيادة النسخ .

(٤) في الأصل « ضمن » وهو تحريف .

(٥) قال الصولي : « قد كره قوم من أهل العلم « أطال الله بقاءك » . وروى عن حماد بن زيد أنه

قال : أحدثها الزنادقة . وقال الأصمعي : هي من دعاء الزنادقة . وقيل : أصل يبطل هذا ويطلق الكتاب

بها إذ كان الناس كلهم الآن عليها » ، وذلك الأصل هو ما رواه أنها وقعت في مخاطبة عمر لعلي بن أبي طالب :

صدقت ، أطال الله بقاءك ! (أدب الكتاب — ص ١٧٢ و ١٧٣) .

(٦) في العقدة : « ارم ، فداك أبي وأمِّي ! » .

(١)
كل من حلُّ سرِّ من را من النا * س و من يصاحب الأملاك
(٢)
لو رأى الكلب ماثلاً في طريق * قال للكلب يا جعلت فداك

(١) في العقد : « يداخل » . (٢) قد وقع ابن المدبر في هذا إذ قال يخاطب أبا العيس :
كيف أصبحت يا جعلت فداك * إنني أشنكي إليك جفاكا
(ص ١١٨ ج ١٩ أغاني) .

وقوله في مخاطبة أبي عبد الله حمدون :

لبئس مستنصحا في مثل ذلك يا * نفسي فداؤك من مستنصح غدر

وتأمل عبارة « يا نفسي فداؤك » . ووقعت هذه العبارة في خطاب كتبه إليه عريب إذ قالت : « فلا
تعوّد نفسك — جعلني الله فداها — هذا الجفاء ، والثقة مني بالاحتمال وسرعة الجوع » ص ١٢١
ج ١٩ أغاني . وذكر الفلقشندي نقلا عن النحاس في جملة ما يكتب به الفتيان : « جعلت أنا وطارفي
وتالدي فداك ، أو نفسي تفديك » ص ١٣٢ ج ٨

وقد وقع هذا الدعاء في كتب ابن عبد كان — كاتب أحمد بن طولون في مصر — إذ قال :

« جعلني الله فداك ، فإن في ذلك شرفا في العاجل ، وذخر العقبى في الآجل » . وقال :

« إن قلت في كتبي إليك : جعلني الله فداك ، فأكون قد نجحت حظ إحسانك إليّ ، وحق مفترضك
عليّ ، لأنها نفس لا توازن ساعة من يومك ، ولا توازي طرفة من دهرك ، وإنما يفدى مثلك بالأنفس
التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض » ص ١٦١ ج ٨

ويظهر من كتاب أدب الكتاب للصولي أن هذا تعبير قديم ، فقد نقل أن الزبير دخل على النبي صلى الله
عليه وسلم وهو عليل فقال : ما الذي بك ، جعلني الله فداك؟ فقال : « يا زبير ! أما تركت أعرا بيتك
بعد ! » . كأنه كره قوله : جعلني الله فداك . ص ١٧٣ . ونقل عن أحمد بن يحيى ثعلب أنه سمع ابن الاعرابي
يقول : تقول العرب « وهبني الله فداك » بمعنى جعلني فداك . ص ١٧٤

وكتب عبد الحميد : « جعلت فداك من سوء كله » . وتبعه أبو العيلاء ص ١٥١ أدب الكتاب .
ويظهر أن ابن المدبر كان قد ردّد هذه الفكرة في أحاديثه قبل أن يودعها الرسالة العذراء ، فقد قال
الصولي : وأجتنبوا أن يقولوا للوزير في الدعاء « جعلني الله فداك » من أجل أن الشيء إنما يفدى
بمثله أو بأجل منه . ثم قال بعد إيراد الشواهد على ذلك : « حدّثنا بذلك إبراهيم بن المدبر ، وهذا رأى
لم يكن القدماء يرونه ، بل كانوا يخاطبون الخلفاء بالثدية فضلا عن الوزراء » . (ص ١٥٣ و ١٥٤) .
ونقل عن المبرد أنه قال : سأل المأمون أبا محمد يحيى بن المبارك عن شيء فقال له : « لا ، وجعلني الله
فداك ، يا أمير المؤمنين » ؛ فقال : لله ذلك ، ما وضعت واو قط موضعا أحسن من موضعها في لفظك .
ووصله وجملة . قال : وهذا لفضل أدب المأمون ، علم أن الثدية من أخلص الدعاء ، وألطف التوسل ،
وأن غاية موجود الأسمان وأنفس ذخائره نفسه جلت أو قلت (ص ١٥٤) .

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل "أبقاك الله وأمتع بك" إلا إلى الحرمة والأهل
والتابع والمنقطع اليك . وأما في كتب الإخوان فغير جائز، بل مذموم مرغوب عنه ،
ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات ^(١) :

أُحِلَّتْ عَمَّا عَهَدْتَ مِنْ أَدَبِكَ * أَمْ نَلْتِ مَلَكَ فَتَهْتِ فِي كِتَابِكَ
أَمْ هَلْ تَرَى أَنْ فِي التَّوَاضُعِ لَدَا * بِإِخْوَانِ نَقَصَا عَلَيْكَ فِي حَسَبِكَ ^(٢)
أَتَعَبْتِ كَفَيْكَ فِي مَكَاثِبِي * حَسْبِكَ مِمَّا يَزِيدُ فِي تَعْبِكَ ^(٣)
إِنْ جَفَاءَ كِتَابُ ذِي أَدَبٍ * يَكْتُبُ فِي صَدْرِهِ : "وَأَمْتَعْ بِكَ" ^(٤)
فَكْتُبْ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ :

أَنْكَرْتَ شَيْئًا فَلَسْتُ فَاعِلُهُ * فَلَنْ تَرَاهُ يَخْطُ فِي كِتَابِكَ ^(٥)
فَأَعْفُ فِدَتِكَ النَّفُوسَ عَنْ رَجُلٍ * يَعِيشُ حَتَّى الْمَمَاتِ فِي أَدَبِكَ ^(٦)
كَيْفَ إِخْوَانُ الْإِخَاءِ يَا أَمَلِي * وَكُلُّ شَيْءٍ أَنْالُ مِنْ سَبَبِكَ ^(٧)
إِنْ يَكُ جَهْلًا أَنْالُكَ مِنْ قَبْلِي * فَعَدَّ بِفَضْلِ عَلِيٍّ فِي أَدَبِكَ ^(٨)

(١) وردت هذه المكاتبات في أدب النجاش مع اختلاف قليل (أنظر ص ١٦١ و ١٦٢) .

(٢) رواية العقدي :

أَمْ هَلْ تَرَى أَنْ فِي مَلَاطِفَةِ الْإِخَاءِ * حَسْبِكَ مِمَّا لَقِيتِ «

(٣) في العقدي : « حَسْبِكَ مِمَّا لَقِيتِ » .
(٤) رواية العقدي .

أَكَانَ حَقًّا كِتَابُ ذِي مَقَّةٍ * يَكُونُ فِي صَدْرِهِ : وَأَمْتَعْ بِكَ

(٥) في العقدي : « وَانْ » وهو أدق .

(٦) رواية الصولي : « فِي كَنْفِكَ » وهي أنسب ولا يقع بها في البيت إيطاء .

(٧) رواية الصولي : « كَيْفَ يَحُولُ الْإِخَاءُ ... وَكُلُّ خَيْرٍ » الخ .

(٨) رواية الصولي :

إِنْ كَانَ ذُنْبًا جَنَاهُ ذُو ثِقَةٍ * فَعَدَّ بِفَضْلِ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ

ورواية ابن عبد ربه :

إِنْ يَكُ جَهْلًا أَنْالُكَ مِنْ قَبْلِي * فَعَدَّ بِفَضْلِ عَلِيٍّ مِنْ حَسَبِكَ

(٧)

وأما صدور السلف فإنما كانت : من فلان بن فلان إلى فلان . كذلك جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العلاء بن الحضرمي ، وإلى أقيال اليمن ، وإلى كسرى وقيصر ، وكتب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع الصدور ، واستنبطوا لطيف الكلام ، ورتبوا الكل رتبة ، وجرؤا على تلك السنة الماضية إلى عصرنا هذا في كتب الخلفاء والأمراء ، وثبتوا على ذلك المنهج في كتب الفتوحات والأمانات والسجلات .

(٨)

ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب ألا يتجاوز به عنه ، ولا يقصر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوكة بمخاطبة العوام في قوله :
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم * مَدَّقُ الحديث يقول ما لا يفعل
فهذا معنى صحيح في المدح ، ولكنهم أجلوا أقدار الملوكة أن يمدحوا بما يمدح به العوام ، لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد ، وإن كان مدحا فهو واجب على كل ، والملوك لا يمدحون بالفروض الواجبة ، وإنما يحسن مدحهم بالنوافل ، لأن المادح لو قال لبعض الملوكة : إنك لا تزي بجليلة جارك ، وإنك لا تخون ما آستودعت ، وإنك تصدق في وعده ، وتنفى بعهدك ، كان قد أثنى بما يجب ، ولكنه لم يصل بثناؤه إلى مقصده ، وقال ما لا يستحسن مثله في الملوكة .

ونحن نعلم أن كل أمير تولى من أمور المؤمنين شيئا فهو أمير المؤمنين ، غير أنهم لم يطلقوا هذه اللفظة إلا للخلفاء خاصة ، ونعلم أن الكيس هو العقل إذا عونا به

ضد الحق ، ولكنك لو وضفت رجلا فقلت : إن فلانا لعاقل ، كنت قد مدحتنه عند الناس ، ولو قلت إنه كيس كنت قد قصرت في وصفه ، وقصرت به عن قدره^(١) ، إلا عند أهل العلم باللغة ، لأن العامة لا تلتفت إلى معنى الكلمة إلا إلى حيث جرت منها العادة في استعمالها في الظاهر ، مع الحدائثة والغرة^(٢) وخساسة القدر ، وصغر السن ، فقد روينا عن علي رضي الله عنه أنه تبيح بالكيس حين بنى [سجن] الكوفة وقال :

أما تراني كيسا مكيسا * بنيت بعد نافع محيسا^(٦)
حصنا حصينا وأميرا كيسا^(٧)
^(٨)

وقال آخر :

* ما يصنع الأحق المرزوق بالكيس *

ونعلم أن الصلاة رحمة ، غير أنهم قد حرّموها إلا على الأنبياء ، كذلك روى عن ابن عباس رضي الله عنه . وسمع سعد بن أبي وقاص أخاه يلي ويقول :
يا ذا المعارج ، فقال : نحن نعلم أنه ذو المعارج ، ولكن ليس كذلك كما نلبي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما كنا نقول : لبيك اللهم لبيك !

(١) رواية العقدي : « وصغرت من قدره » . (٢) عبارة العقدي : « إذ كان استعمال العامة لهذه الكلمة مع الحدائثة والغرة . الخ » . (٣) في الأصل « الغرة » وهو تحريف . (٤) في العقدي : « تسمى بالكيس » . وربما كان الأصوب « المكيس » وفي فتوح مصر لابن عبد الحكم أن أهل مصر كانوا يسمون عبد الله بن عبد الملك « مكيسا » ص ١٢٢ (٥) زيادة ضرورية عن العقدي . (٦) نافع : سجن بالكوفة كان غير مستوفق البناء وكان من قصب فكان المحبوسون يهربون منه . (٧) الخيس : سجن بالكوفة بناه أمير المؤمنين علي بعد سجن نافع . (٨) في اللسان : « بابا كبيرا وأمينا كيسا » . (٩) عبارة العقدي : « وكذلك نعلم » . (١٠) في العقدي : « ابن أخله » .

وكان أبو إبراهيم^(١) المزني قال في بعض ما طالب به داود بن خلف الأصمباني^(٢) :
وإن قال كذا فقد نرج من الملة والحمد لله ؛ فانتقد عليه ذلك داود وقال : تحمد الله^(٣)
على أن يخرج مسلم من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ،
ونحن نقول على المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون .^(٤)

(٩)

فامتثل هذه الرسوم والمذاهب ، وأجرى على آدابهم ، فلكل رسوم امتثالوها .
وتحفظ في صدور كتبك وفصولها ، وأفتتاحها وخاتمها ، وضع كل معنى في موضع
يليق به ، وتخير لكل لفظة معنى يشاكلها . وليكن ما تختتم به فصولك في موضع
ذكر الشكوى بمثل : والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ وفي موضع ذكر
البلى : نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صرف السوء ؛ وفي موضع ذكر المصيبة
بمثل : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ وفي موضع ذكر النعم بمثل : والحمد لله خالصا
والشكر لله واجبا ؛ فإنها مواضع ينبغي للكاتب تفقدها ، وإنما يكون كاتباً إذا وضع^(٥)
كل معنى في موضعه ، وعلق كل لفظة على طبقها من المعنى ، فلا يجهل أول^(٦)
ما ينبغي له أن يكتب في آخر كتابه ولا آخره في أوله ؛ فإنني سمعت جعفر بن محمد^(٧)
الكاتب يقول : لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتباً حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر^(٨)
أول كتابه ولا يقدم آخره .

(١) في العقد « إبراهيم » فقط . (٢) في الأصل : « داود بن علي خلف » وهو تحريف ، والتصويب
عن العقد . (٣) في العقد : « فنتق عليه ذلك داود » . (٤) في العقد : « وإنما يقال
في المصيبة » . (٥) في العقد : « فان هذه المواضع يجب على الكاتب أن يتفقد ها ويحفظها » .
(٦) في العقد « فان الكاتب إنما يصير كاتباً » . (٧) في الأصل « طبقها » وهو تحريف ، والصواب
عن العقد . (٨) في الأصل : « ولا أوله في آخره » . (٩) هو جعفر بن محمد بن خالد بن ثوابه .
أنظر معجم الأدباء لياقوت ج ٢ ص ٣٧ (١٠) عبارة العقد : « لا يكون الكاتب كاتباً » وهي أدق .

(١٠)

وأعلم أنه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آى القرآن من الإيصال والحذف ،^(٢)
ومخاطبة الخاص بالعام ، والعام بالخاص ، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب
بالقرآن أقواما فصحاء فهموا عنه — جل شأؤه — أمره ونهيه ومراده ، والرسائل إنما
يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب . وكذلك ينبغي للكاتب
أن يتجنب اللفظ المشترك ، والمعنى الملتبس ؛ فإنه إن ذهب على مثل قوله تعالى :
﴿ وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ بل مكر الليل
والنهار ﴾^(٤) ، احتاج أن يبين [أن معناه : أسأل أهل القرية وأهل العير ، و] بل
مكرهم بالليل والنهار ، ومثله في القرآن كثير .^(٦)

(١) في العقد : « استعمال ما أتت به آى القرآن » .

(٢) في العقد : « الاختصار » وفي نهاية الأرب « الاختصار » .

(٣) وردت هذه الآية في الأصل محرقة . انظر سورة يوسف . ورقم الآية ٨٢

(٤) انظر المصحف ٣٤ : ٣٢

(٥) زيادة عن نهاية الأرب ج ٧ ص ١٨٧

(٦) بمناسبة الحذف جاء في الأغاني أن عريب كتب الى جماعة من أهل الأدب منهم ابراهيم بن
المدير وسعيد بن حميد ويحيى بن عيسى : « بسم الله الرحمن الرحيم . أردت ولولا ولعلى » ووجهت اليهم
الرقعة ؛ فلما وصلت قرءوها وعيوا بجوابها . فأخذها ابراهيم بن المدير فكتب تحت أردت : ليت ، وتحت
لولا : ماذا ، وتحت لعلى : أرجو . ووجه بالرقعة اليها — ص ١٢١ ج ١٩ طبع السامى .
وفي ياقوت عن رجل كان ينادم ابن المدير قال : كنت عنده ذات يوم فرجع غلام له أنفذه في شئ ،
لا أدري ما هو فقال له : ما صنعت ؟ فقال : ذهبت ولم يكن فقام يحيى ، فجاء فلم يجىء بجنت . وتفسيرها :
ذهبت الى الغلام ولم يكن أبوه هناك فقام الغلام يحيى ، فجاء أبوه فلم يجىء الغلام بجنت أنا (ص ٢٩٣ ج ١
معجم الأدباء .

ومفهوم أن هذا الحذف لا يكرن إلا لغرض التعمية أو التلبيح . وغرض ابن المدير في الرسالة
أن يشير الى المكاتبات العامة .

(١١)

ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لأن الشعر موضع اضطراب فاعتفروا فيه
الإغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير والإضمار في موضع الإظهار : فمن الحذف^(١)
قول الحطية : "من صنع سلام"^(٢) يريد سليمان بن داود ، وكقول الآخر : "والشيخ عثمان
أبو عفان"^(٣) ، وكقول الآخر :

وسائلة بشعلة بن سَيْر * وقد علقتم بشعلة العلق^(٤)

أراد ابن سيار ، وكقول النابغة :

(١) عبارة العقد ونهاية الأرب :

« وكذلك لا يجوز أيضا في الرسائل والبلاغات المشورة ما يجوز في الأشعار الموزونة . لأن الشاعر مضطر . والشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافي ، فلذلك أجازوا لهم صرف ما لا ينصرف من الأسماء وحذف ما لا يحذف منها ، واعتفروا فيه سوء النظم ، وأجازوا فيه التقديم والتأخير ، والإضمار في موضع الإظهار ، وذلك كله غير سائغ في الرسائل ، ولا جائز في البلاغات » ص ١٩ ، ج ٢٠ ص ٣ .

(٢) ورد البيت في العقد كاملا :

فيها الرماح وفيها كل سابعة * جدلاء مسرودة من صنع سلام
والشطر الأخير ورد في المزهري هكذا :

* جدلاء محكمة من صنع سلام *

(ص ٢٥١ ج ٢ طبع بولاق)

وورد في الجواليقي ص ٨٥ طبع أوربا :

* جلاء محكمة من صنع سلام *

وظاهر ان (جلاء) مخترقة عن (جدلاء) .

(٣) ينبغي أن نلاحظ أن أكثر أهل مصر يقولون : « فلان أبو فلان » بمعنى « ابن فلان » ،

ويمكن أن يكون هذا بقية من بعض التعابير القديمة . وقد ورد البيت كاملا في العقد ، وصدده :

من نسج داود أبي سلام . (٤) العلق بالفتح : المنية .

* ونسج سليم كل قضاء ذائل^(١) *

يريد سليمان .

وكذلك ينبغي في الرسائل ألا يصغر الاسم موضع التعظيم وإن كان ذلك جائزا
على مثل قولهم : دويبية وجديل وعديق^(٢) .

(١) قضاء : على وزن شداد الدرع المحكمة . وذائل : طويل الذيل . وفي الأصل « كل قضاء
نازل » وهو تحريف . وصدر البيت : وكل صموت نثلة ثعلبية . أنظر المزهج ج ٢ ص ٢٥١ والعقد
الشمين في دواوين الستة الجاهليين ، طبع لندن ص ٢٣ — وفي العقد الفريد شواهد للحدف غير ما مر وهي :
* قواطنا مكة من ورق الحما *

يعنى الحمام .

وقول الآخر : * صفير الوشاحين صموت الخليل * يريد : الخلال .
وقول الآخر : * دارلسلمى إذ ه من هواك * يريد : إذ هي .
وقال الآخر :

ولست بآتية ولا أستطيعه * ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل

أراد : ولكن

وزاد المزهج قول الآخر :

فإن تنسنا الأيام والعصر تعلموا * بنى قارب أنا غضاب لمعبد

أراد : عبد الله ، لتصريحه به في بيت آخر من القصيدة

وقال آخر :

* هوى بين أطراف الأسته هوبر *

يريد : ابن هوبر « انظر بقية الشواهد ص ٢٥١ ج ٢ » .

(٢) في الأصل « عزيق » بالزاي المعجمة وهو تحريف . وأضاف العقد : « جذيل : تصغير جدل »

وعديق : تصغير عديق « وزاد الشواهد الآتية :

قال الشاعر وهو ليبي :

وكل أناس سوف تدخل بينهم * دويبية تصفر منها الأنامل

وقال الحباب بن المنذر يوم سقيفة بني ساعدة : أنا عديقتها المرجب ، وجذيلها المحكك .

وما لا يجوز في الرسائل : كلمت إياك وأعنى إياك ^(١) .
وإساءة النظم في التأليف في الشعر كثير .

وتكون الكلمة بشعة حتى إذا وضعت موضعها وقرنت مع أخواتها حسن حالها
ورأقت ، كقول الحسن بن هانئ :

* ذو حُضْرُ أفلت من كد القبلُ *

والكدة كلمة قلقلة لا سيما في الرقيق والغزل والتشبيب ، غير أنها لما وقعت
في موضعها حسنت ، كما أن اللفظة العذبة إذا لم توضع موضعها نفرت ، قال :

رأت عارضا جونا فقامت غريرة * بمسحاتها قبل الظلام تبأدره
فأوقع الجلف الجاني هذه اللفظة غير موقعها ، وظلمها إذ جعلها في غير مكانها ، لأن
المساحي لا تكون ولا تصلح للغرائر ؛ وأين كان عن قول الشاعر :

غرائر ما حدثن يهدين أنسة * فما فوقه منهنّ غير غرائر ^(٢)
حديث لو أن العصم تدعى به أنت * ودون يد الفحشاء حد البواتر ^(٣)

فتخيّر من الألفاظ أرجحها وزنا ، وأجزلها معنى ، وأليقها في مكانها [وأشكلها
في موضعها] ^(٤) .

(١) زاد في العقد أن هذا جائز في الشعر . قال الشاعر :

وأحسن وأجمل في أسيرك أنه * ضعيف ولم يأسر كأيك أسر

وقال الراجز :

* إياك حتى بلغت إياك *

(٢) كذا في الأصل والمعنى غير ظاهر . وربما جاز أن نقرأ « لما فوقه منهنّ غير غرائر » ويكون
المراد أن أولئك الحسان تغلب عليهن الغرة والسذاجة حين يكون الحديث لمحض الانس ، فإذا أريد
بالحديث ما يفرق ذلك من أمارات الريبة عند غير غرائر واهتمتن بسوء الظن .

(٣) العصم جمع أعصم ، وهو من الغلباء والوعول ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض ، وسائر أسود
أو أحمر ، والمؤنث عصماء . والعصم معروفة بشدة النفور . ولذلك صح للشاعر أن يصف حديث الملاح
بالقدرة على جذب النوافر من الوعول والغلباء . (٤) زيادة عن العقد .

(١٢)

وليكن في صدر كتابك دليل واضح على مرادك ، وأفتتاح كلامك برهان شاهد على مقصودك^(١) حيثما جريت فيه من فنون العلم ، ونزعت نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات ، فإن ذلك أجزل لمعناك ، وأحسن لآساق كلامك . ولا تطيل صدر كلامك إطالة تخرجه من حده ، ولا تقصر به عن حقه . ولو صوّر اللفظ وكان له حدّ لوقفك عليه ، غير أنهم في الجملة كرهوا أن يزيدوا سطور كتب الملوك على سطرين ، وهذه إشارة لا تعبر إلا عن الجملة من المقصود إليه ، لأن الأسطر غير محدودة .

(١٣)

وأعلم أن أول ما ينبغي لك أن تصالح آلتك التي لا بد لك منها ، وأدواتك التي لا تتم صناعتك إلا بها : وهي دواتك ، فأبدأ بعبارتها وإصلاحها ، وتخيرها ايقنة نقية من^(٢)

(١) هذا يذكر بكلمة ابن المفضل « وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته » . انظر البيان والتبيين ص ٩١ ج ١ وزهر الآداب ص ٩٦ ج ١ طبع سنة ١٩٢٥ . (٢) الدواة جمعها دوى مثل نواة ونوى . وهن دويات مثل نويات ، ودوى أيضا بضم الدال وتشديد الياء مثل قناة وقنى ، قال أبو ذؤيب .

عرفت الديار كرقم الدوى * يحسبه الكاتب الحسيري

وقال زهير :

أمن آل سلهى عرفت الطلولا * كخط الدوى ما ثلاث منولا

(٣) اللقمة ما يوضع في الدواة من صوف أو خرقة ، فإن كانت من القطن خاصة فهي الكرشف . ويقال لقت الدواة إذا أصلحتها وسوّدت مدادها فأنا أليقها إلاقة ، فهي إلاقة وأنا مليق ، وفي لغة أخرى لقتها فأنا أليقها ليقا . وقد لاقت الدواة نفسها أي اسودت ، فهي لاثقة . ومن هذا قيل : ما لاقت المرأة عند زوجها ، أي ما لصقت بقلبه . وإنان ما يليق شيئا : أي ما يثبت في يده شيء . قال الشاعر :

تقول إذا أهلك ما لا للذة * قبيلة هل شيء بكحك لاقي

ومنه قول الأصمعي : دخلت على الرشيد في بعض قدماني فقلت : « ما ألقى الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين » أي ما ألصقته بها ولا قبلته . انظر أدب الكتاب ص ٩٩ ، ١٠٠ وكتاب الكتاب ص ٩٤

(١)
الشعر والوذح لئلا يخرج على حرف قلمك ما يفسد كتابك ، ويشغلك بتفقيته ، وخذ
من المداد الفارسي خمسة دراهم ، ومن الصمغ العربي درهما ، وعفصا مسسحوقا
نصف درهم ، ورماد القرطاس المحرق درهمين ، ثم تسحقها وتفربلها وتجهها ببياض
البيض ، ثم بندقها وأجعلها في الظل ، فإذا احتجت إليها أخذت منها مقدار حاجتك
فكسرتة وحشوت به دواتك ، وإذا نعتته في ماء الساق حتى ينحلّ ويذوب ويختمر
ثم أمددت من مائه دواتك كان أجود وأنقى . ثم اختر بعد ذلك من أنابيب القلم^(٢)
الذي يصلح لكتابة القراطيس أقله عقددا ، وأكثفه لحما ، وأصلبه قشرا ، وأعدله^(٣)
استواء ، وتجنب الأقلام الفارسية ما استطعت فإنها ما تصلح إلا للكواغد والرقوق .^(٤)

(١٤)

وآجعل لقلمك براية حادة ، فإن تعثر يد الكاتب وقت قطع القرطاس ناقص
مروءته ، ومحلّ بظرفه .

وإن قدرت ألا تقطع القرطاس اذا فرغت من كتابك إلا بخرطوم قلمك
فأفعل ، فإن ذلك أكمل لمروءتك ، وأبدع لظرفك وقطعك .

(١) الوذح بالذال المعجمة ما تعلق بأصواف الغنم ، وفي الأصل « الودح » بالذال المهملة .
وهو تحريف .

(٢) الأنابيب جمع أنبوب وهو من القصب والقنا . قال امرؤ القيس :
وكشع لطيف كالجديل مخصر * وساق كأنبوب السق المذال
ولا يسمى الأنبوب قلما حتى يتقطع (انظر كتاب الكتاب ص ٩٣)

(٣) في الأصل « عقددة » وهو تحريف ، والصواب عن العقد .

(٤) في الأصل « أجلبه » وما أثبتناه أنسب وهو يطابق ما في العقد .

(١) واستعمل لبري القلم سكيناً طواويسياً، مذلق الحدد، وميض الطرف، فيكون ذلك عوناً لك على برى أقلامك، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس؛ ولئن قيل: كأنه الرمح الرديني فقد قال الكاتب: كأنه القلم البحري. وتفقد الأنبوبة قبل برئيكها لئلا تجعلها منكوسة، وأبرها من ناحية نبات القصيبة، وأرهف ما قدرت جانبي قلمك، ليرد ما أنتشر من المداد، ولا تطل شقه فإن القلم لا يمج المسداد من شقه إلا مقدار ما احتملت شباته، فأرفع شباته ليجمعها لك حواشي تحضيره. وأما قط القلم^(٢) فعلى قدر القلم الذي يتعاطاه الكاتب من الخط، غير أن المسلسل لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المربع القط، كما أن كتب الملوك والسجلات لا تحسن إلا بالقلم المحرف الكوفي، وأما قلم اللازورد فهو المعتمد عليه، والمقصود إليه في النوائب والمهمات.

(١) السكين يذكر وقد يؤنث، فن تذكيره قول أبي ذؤيب:

يرى ناصحاً فيما بدا فإذا خلا * فذلك سكين على الخلق حاذق

أى قاطع، وفي تأنيهاً يقول بعض بني ثعلب:

فأنحى للسنام غداة قر * بسكين موثقة النصاب

(أنظر أدب الكتاب ص ١١٥، ١١٦).

(٢) قال الصولي في أدب الكتاب: «يقال: قطعت القلم أقطه قطاً. والقط والقد متقاربان: لأن

القط أكثر ما يستعمل فيما وقع السيف في عرضه، والقد لما وقع في طوله. ومنه قولهم: كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه إذا علا بسيفه شيئاً فده، وإذا أعترضه قطه. وقد يحمل هذا على هذا. وقال عمرو بن معد يكرب:

فكم قط سيني من فونس * غداة التقينا ومن منسرق

ومط حاجبيه ومد بمعنى، وإنما جاز ذلك في قد وقط ومد ومط لأن مخرج الطاء والذال في مكان واحد من أصول الثنايا وطرف اللسان، كما يقال: طين لازب ولازم، لأن مخرج الباء والميم من الشفة في مكان واحد. أنظر ص ١٠٩، ١١٠ — قال ابن درستويه: «وتقول: قطعت القلم قطاً إذا قطعت من

طرفه المبري يستوي» كتاب الكتاب ص ٩٣

(١) ورأيت كثيرا من الكتاب يختارون قلم الزجس لتجمده وتجانسه ومن الازورد
أبسط منه وأقوم حروفا . وأما الموشع والمولع والمديج والمنمنم والمسهم فعلى قدر
رشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه .

وأما حسن الخط فلا حد له . قال على بن زيز النصراني الكاتب : أعلمك
الخط في كلمة واحدة : لا تكتبن حرفا حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف
المبدوء به ، وتجعل في نفسك أنك لا تكتب غيره ، حتى لا تعجل عنه الى غيره .

(١٥)

وإياك والنقط والشكل في كتابك ، إلا أن تمر بالحرف المعضل الذي تعلم أن
المكتوب إليه يعجز عن استخراجيه ، فلا أن يُشكِل على الحرف أحب إلى من أن
يعاب بالنقط والإعجام .^(٢)

وقال المأمون لكتابه : إياكم والشونيز في كتبكم ، يعنى النقط [والإعجام]^(٤) .
ولذلك قال ابن هاني :^(٣)

لم ترض بالإعجام حين كتبتك * حتى شككت عليه بالإعراب^(٥)

(١٦)

ولا تغفل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد قال أبو العيناء : ان
بني أمية هم الذين كانوا أمروا كتابهم فطرحوا ذلك من كتبهم ، بخرت عادة الكتاب

(١) غير واضح وجود "من" هنا ، ولو حذف لاستقام الكلام .

(٢) في العقد : « فاني سمعت سعيد بن حميد الكاتب يقول : لأن يشكل على الحرف . الخ » .

(٣) في الأصل « اياي » والتصحيح عن العقد . (٤) زيادة عن العقد .

(٥) في الأصل : « حتى كتبت السب » وهو تحريف ، والتصحيح عن أدب الكتاب ص ٦١

وهذا البيت من قطعة مستملحة لأبي نواس أولها :

يا كاتبا كتب الغداة يسبني * من ذا يطبق براعة الكاب!

الى يومنا هذا على ما سنوه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تجعلوني كقدح
الراكب ، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره » صلى الله عليه وعلى آله
وسلم أولا وأوسط وآخره .

وأحب أن يجعل بدل الإشارة التراب فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« أتربوا كتبكم فإنه أنجح للحاجة »^(٢) .

(١٧)

ولا تدع التاريخ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها ، وأنظر الى ما مضى
من الشهر وما بقي منه : فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قلت لكذا لينة
مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف قلت لكذا أيضا بقيت .^(٣)
وقد قال بعض الكتاب : إن الماضي من الشهر تحصيله والباقي لا تحصيله ، لأنك لا تدري^(٤)

(١) « الإشارة » بضم الهمزة هي نشارة الخشب ، والكلمة الثانية أكثر استعمالا ، جاء في الجزء الأول
من نفح الطيب ج ١ ص ٧٧ طبع ليدن : إن العربي كتب كتابا فأشار عليه أحد من حضر أن يذرع عليه
نشارة ، فقال :

لا تشته بما تذر عليه * فكفاه هبوب هذا الهواء

فكان الذي تذر عليه * جدرى بوجنة حسنة

(٢) راجع ما جاء في إتراب الكتب في « منتخب كنز العمال » على هامش مسند ابن حنبل ج ٤
ص ٦٦ ، وظاهر أن للكتاب يدا في أكثر ما وضع من الأحاديث خاصة بمهنة الكتابة وأدواتها . وقد نص
الصول على أنه لا يقال : « أترب كتابك » وهذا الشاهد ينقض ما قال .

(٣) انظر ص ١٨٠ وما بعدها من أدب الكتاب ص ٨٥ وما بعدها من كتاب الكتاب .

(٤) في الأصل « أن تحصيله » .

أَيْمَ الشَّهْرِ أَمْ يَنْقُصُ ؟ وَ لَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ ، لِأَنَّ تَارِيخَ الْكُتَابِ لَيْسَ مِنَ الْأَحْكَامِ ^(١)
فِي شَيْءٍ ، وَمَا عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَّا بِمَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ لَا بِمَا يَظُنُّ .

(١٨)

وَلَا تَجْعَلْ سَخَاةَ كِتَابِكَ غَلِيظَةً إِلَّا فِي الْعُهُودِ وَالسَّجَلَاتِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى خَوَاتِمِهَا ^(٢)
وَطَوَابِعِهَا ، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَيْسَى الْكَاتِبَ كَاتِبَ آلِ طَاهِرٍ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ
طَاهِرٍ كَتَبَ إِلَى الْعِرَاقِ فِي إِشْخَاصِ كَاتِبٍ كَانَ كَتَبَ إِلَيْهِ فَكَتَبَ وَغَاطَ سَخَاةَ كِتَابِهِ ،
فَرَدَّ الْكِتَابَ إِلَيْهِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ رَاجِعًا لِبَرِّهِ وَجَائِزَتِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ : إِنْ
كَانَ مَعَكَ مَسْحَاةٌ فَأَقْطَعْ خِزْمَ كِتَابِكَ وَأَنْصِرْفِ وَرَاءَكَ .

وَكَذَلِكَ لَا تُعَظِّمُ الطَّيْنَةَ ، فَفِي الْمَثَلِ : مِنْ عَظَمِ الطَّيْنَةِ فَإِنَّهُ مَلُومٌ ^(٣) . وَلَا تَطْبَعِهَا ^(٤)
إِلَّا بَعْدَ عُنْوَانَاتِهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُرَادٌ بِهِمْ ^(٥) .

وَ قَدْ يَجِبُ عَلَيْكَ عِلْمُ إِصْحَاقِ الْقِرَاطِيْسِ وَمَحْوِهَا . وَلَمْ أَرْ شَيْئًا فِي إِصْحَاقِهَا
أَلْطَفَ مِنْ أَنْ يُنْقَعَ الصَّمْعُ الْعَرَبِيُّ فِي الْمَاءِ سَاعَةً حَتَّى يَذُوبَ ثُمَّ يُلْصِقُ بِهِ ، وَكَذَلِكَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَوْ » .

(٢) السَّخَاةُ مِثْلُ عِظَاةٍ ، وَالسَّحَاةُ مِثْلُ عَفَاةٍ : مَا شَدَّ بِهِ الْكِتَابُ مِنْ خَيْطٍ وَنَحْوِهِ ، تَقُولُ سَخَوْتُ
الْكِتَابَ أَخَوْتُهُ سَخَوًا ، وَسَخَيْتُهُ أَخْتَاهُ سَخِيًا ، وَالْوَاوُ أَكْثَرُ . وَزَادَ ابْنُ دُرُسْتَوَيْدٍ : أَسَخَيْتُ الْكِتَابَ فَأَنَا
أَسَخِيهِ إِسْحَاءٌ وَإِسْحَاءَةٌ حَسَنَةٌ فَأَنَا مَسْحٌ . وَإِذَا كَانَتْ كِتَابٌ كَثِيرَةً قَالَتْ : سَخِيَتْهَا ، بِالتَّشْدِيدِ . فَأَنَا أَسَخِيَهَا
تَسْحِيَةً ، وَأَنَا مَسْحٌ وَهُوَ مَسْحِيٌّ .

(٣) يُقَالُ : طَيَّنْتُ الْكِتَابَ إِذَا جَعَلْتُ عَلَيْهِ طَيْنَ الْخِثَامِ ، وَيُقَالُ طَلَنْتُ الْكِتَابَ أَطَيْنْتُهُ . فَإِذَا أَمْرَتْ
قَالَتْ : طَيْنَ كِتَابِي ، وَإِنْ شُدَّتْ قَالَتْ : طَنَّ كِتَابِي . وَالطَّيْنَةُ : الطَّابِعُ عَلَى الْكِتَابِ وَالصَّكُّ . وَالْآنَ يَسْتَعْمَلُ
السَّمْعَ مَكَانَ الطَّيْنِ ، فَإِذَا أَمْرَتْ قَالَتْ : سَمِعْتُ كِتَابِي .

(٤) فِي الْأَصْلِ « مَظْلُومٌ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٥) فِي الْأَصْلِ « بِهِمْ » بِالْبَاءِ الْمَوْحِدَةِ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

ماء الكثير أو النشاستج^(٢) ، ثم تطويه طيا رقيقا وتجعله في منديل نظيف ويوضع تحت^(٣)
وسادة حتى يجف^(٤) . وأما محوها فعلى قدر لطف الكاتب وتأنيبه ، غير أنه ينبغي له
ألا يلقط السواد من القرطاس إلا بمثل الشمع المسخن واللبن الممضوغ وما أشبههما ،
ثم يكون لقطه رويدا رويدا كلما لقط جانبا حوله الى الجانب الآخر .

(١٩)

وأما قراءة الكتب المختومة والتلطف لفض خواتمها ، فما لا نذكره خوفا من
سفيهه .

وأما تضمين الأسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب إليه ففيه أدب ، وقد تعلقت
العامة بالقمي والأصبهاني ، فيجب أن تبدل الحروف تبديلا يخفى . وألطف من ذلك
أن تأخذ لبنا حليبا فتكتب به في قرطاس ، فيدّر المكتوب إليه عليه رمادا حارا من^(٦)
رماد القراطيس فإنه يظهر . وإن كتب بماء الزاج وذر عليه العفص المدقوق بزاج^(٧)
أو بماء العفص وذر عليه شيئا من الزاج أو ينقع شيئا من وشق^(٨) ثم تكتب به

-
- (١) الكثير طلع النخل . وهو في كتب اللغة « الكثر » بالفتح والتحرير .
(٢) قال الخفاجي في شفاء الغليل في كلامه على نشا انه معرب نشاسته وقال الجوهري هو النشاستج فارسي
معرب حذف شطره تخفيفا كما قالوا للنازل منا .
(٣) في الأصل « يرفع » .
(٤) الضمير عائد على القراطيس ، وليلاحظ أن المؤلف ذكر الضمير قبيل ذلك اذ قال : « ثم تطويه
طيا رقيقا وتجعله في منديل نظيف » .
(٥) في الأصل « لنقض » وهو تحريف (انظر ص ١٢٤ من أدب الكتاب للصولي) .
(٦) في الأصل « طيبا » وهو تحريف . (انظر صبح الاعشى ص ٢٢٩ ج ٩) .
(٧) في الأصل « بجاز » وهو تحريف (انظر صبح الأعشى) .
(٨) الوشق : نوع من العشب ، وكان مما تجر به العروس عند الجلوة ، كما أفادنا الأستاذ مرسيه
ونحن نراجع معه هذه النصوص .

ثم نثرت عليه الرماد فإنه يظهر، وإن أحببته لا يُقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه
بمرارة السِّلْحَفَاة^(٢) .

(٢٠)

وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب فزِنِ اللفظة قبل أن تخرجها بميزان
التصريف إذا عرّضت، والكلمة بعبارة إذا سنحت، فربما سر بك موضع يكون
مخرج الكلام إذا حسب أنا فاعل أحسن من أنا فاعل، وأستفعلت أحلى من فعلت .
وأدير الألفاظ في أما كتبها، وأعرّضها على معانيها، وقلّبها على جميع وجوهها،
حتى تقع موقعها، ولا تجعلها قلقة نافرة، فتي صارت كذلك هجّنت الموضع الذي

(١) في هذه الأسطر ركاكة وضعف .

(٢) بمناسبة إخفاء ما في الكتاب قال في صبح الأعشى ص ٢٢٩ ج ٩

«وقد ذكروا لذلك طرقاً : منها أن يكتب في الورق بلبن حليب قد خلط به نوحادر، فإنه لا ترى فيه
صورة الكتابة فإذا قرب من النار ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب في الورق أيضاً بماء البصل المعتمر منه فلا ترى الكتابة، فإذا قرب من النار
ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب فيما أراد من ورق أو غيره بماء قد خلط فيه زاج فلا تظهر الكتابة، فإذا مسح بماء قد
خلط فيه العفص المدقوق ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب في الورق غير المنشئ بالشب المحلول بماء المطر ثم يلقيه في الماء أو يمسحه به
فإنه إذا جف ظهرت فيه الكتابة .

ومنها أن يكتب بمرارة السِّلْحَفَاة فإن الكتابة بها ترى في الليل ولا ترى في النهار .

ومنها أن تأخذ الليمون الأسود وعروق الحنظل المقلّوة بزيت الزيتون جزأين متساو بين وتسحقهما
ناعماً ثم تضيف إليهما دهن صفار البيض وتكتب به على جسد من شئت فإنه ينبت الشعر مكان الكتابة
وهو من الأسرار العجيبة، فإذا أريد إرسال شخص بكتاب إلى مكان بعيد فعل به ذلك، فإنه إذا نبت
الشعر قرئت الكتابة . وفي ص ١٠٧ من أدب الكتاب كلمة عن الكتابة في الرأس، وفي ص ٢٢ من البيان
المعرب طبع دوزي كلمة عن وضع الكتابة في الخبز .

(٣) في نهاية الأرب ج ٧ ص ١٨٨ : « وأدر الكلام في أما كتبه . الخ » .

أردت تحسينه . [وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه ^(١)] وأعلم أن الألفاظ
في [غير] أما كتبها [والقصد بها إلى غير مظاهرها] كترقيح الثوب الذي إذا لم تتشابه
رقاعه [ولم تتقارب أجزاءه ، نخرج عن حدّ الجلّة و] تغير حسنه ؛ قال الشاعر :
إن الحديد إذا ما زيد في خَلْقٍ * تبين الناس أن الثوب مرقوع

(٢١)

وآرتصد لكبابك فراغ قلبك ، وساعة نشاطك ، فتجد ما يمتنع عليك بالكد
والتكلف : لأن سماحة النفس بمكنونها ، وجود الأذهان بمخزونها ، إنما هو مع الشهوة
المفرطة في الشيء ، والمحبة الغالبة فيه ، أو الغضب الباعث منه ^(٢) ذلك . قيل لبعضهم :
لم لا تقول الشعر؟ قال : كيف أقوله وأنا لا أغضب ولا أطرب .

وهذا كله إن جريت من البلاغة على عِرْقٍ ، وظهرت منها على حظ ؛ فأما إن
كانت غير مناسبة لطبعك ، ولا واقعة شهوتك عليها ، فلا تُنصِ مطينك في التماسها ،
ولا لتعب بدنك في ابتغائها ، وأصرف عنانك عنها ، ولا تطمع فيها باستعارتك ألفاظ
الناس وكلامهم ؛ فإن ذلك غير مثمر لك ولا يُجِدُّ عليك . ومن كان مرجعه فيها
إلى اغتصاب ألفاظ من تقدم ، والاستضاءة بكوكب من سبقه ، وسحب ذيل حلة
غيره ، ولم يكن معه أداة تولّد له من ينسب قلبه ونتائج ذهنه ، الكلام الحر والمعنى
الجزل ، فلم يكن ^(٣) من الصناعة في غير ولا نغير .

(١) زيادة عن نهاية الأرب .

(٢) زيادة ضرورية .

(٣) في الأصل : « الشر » .

(٤) انظر وصية بشر بن المعتز في البيان والتبيين ص ١٠٤ ج ١ ووصية أبي تمام البحرى

في زهر الآداب ص ١٠١ ج ١

(٥) اقترن الخبر هنا بالفاء ، وذلك جائز إذا كان المبتدأ ما كما هنا . وكقوله تعالى : (وما يكمن

نعمة من الله) .

(٢٢)

على أن كلام العظاء المطبوعين ودرس رسائل المتقدمين ، على كل حال ، مما يفتق اللسان ، ويوسع المنطق ، ويشحذ الطبع ، ويستثير كوامنه إن كانت فيه سجية .

قال العتّابي : ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون العلم ، وجرينا فيه من صنوف الآداب ، شيئا أصعب مراما ، ولا أوعر مسلكا ، ولا أدل على نقص الرجال ورجاحتهم ، وأصالة الرأي وحسن التمييز منه واختياره ، من الصناعات التي خطبتها ، والمعنى الذي طلبته . وليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ وقصديك بها الى موضعها ؛ لأن اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتها في الفصاحة والحسن ، ولا تحسن في مكان غيرها . وبتميز هذه المعاني ، ومناسبة طبائع جهابذتها ، ومشاكله أرواحهم ، جعلوا الكتابة نسبا وقرابة ، وأوجبوا على أهلها حفظها .

(٢)
سهل بن وهب : الكتابة نفس واحدة تجزأت في أبدان مفترقة ؛ ومن لم يعرف فضلها ، وجهل أهلها ، وتعدي بهم رتبهم التي وضعهم الله بها ، فإنه ليس من الإنسانية في شيء .

قالت البرامكة : رسائل المرء في كتبه دليل على عقله ، وشاهد على غيبه .

قال الشاعر :

وتُتكرود المرء في لحظ عينه * وتعرف عقل المرء حين تكاتبه

آخر :

وشعر الفتى يبدي غريزة طبعه * وبالكتب يبدو عقله وبلاغته

(١) في الأصل : « ولا يحسن » بالياء المثناة من تحت .

(٢) في العقد « الحسن » .

(٣) في الأصل : « وصفهم » .

- (١) الشعبي : يعرف عقل الرجل اذا كتب و أجاب .
العتبي : عقول الناس مدونة في كتبهم .
ابن المقفع : كلام الرجل وافد عقله .

(٢٣)

وشبهت الحكماء المعاني بالغواني ، والألفاظ بالمعارض ؛ فاذا كسا الكاتب البليغ المعنى الجزل انظما رائقا ، وأعاره مخرجا سهلا ، كان للقلب أحلى ، وللصدر أملا ، ولكنه بقي عليه أن ينظمه في سلكه مع شقائقه كاللؤلؤ المنشور الذي يتولى نظمه الخاذق .
والجوهرى العالم يظهر بإحكام الصنعة له حسنا هو فيه ، ويمنحه بهجة هي له ، كما أن الجاهل إذا وضع بين الجوهرتين خرزة هجن نظمه وأطفأ نوره . كان حبيب بن أوس ربما وقع على جوهرة فجعلها بين بعرتين . قال الشاعر :

ولو قرنت بدر فاجر خسرزا * من الزجاج لقلنا بثس ما نظما

والياقوت حسن ، وهو في جيد الحسناء أحسن ، وكذلك الشعر الجيد مونق ولكنه من أفواه العضاء آتق ، والتاج الشريف بهى المنظر وهو على الملك أبهى ، كما قال ابن قيس [الرقيات] :
(٣)

* يعتدل التاج فوق مفرقه *

قال أبو العتاهية لابن مناذر : بلغني أنك تقول الشعر في الدهر ، والقصيدة في الشهر ، فقال : نعم لو رضيت لنفسى أن أولف تأليفك وأقول :
* يا عتب يادرة الغواص *

(١) ربما كان الأصوب « أو » .

(٢) في الأصل : « ومنحة » .

(٣) زيادة ضرورية . واسم ابن قيس الرقيات : عبيد الله ، وهو من شعراء العصر الأموى .

(١)

لقلت في اليوم والليله ألف قصيدة .

وقال عمر بن بَلَاءَ لشاعر : أنا أشعر منك ؛ قال : ولم ؟ قال : لأنك تقول

(٢)

البيت وابن عمه وأنا أقول البيت وأخاه .

(١) الذى فى الأغانى أنه اجتمع أبو العتاهية ومحمد بن منذر، فقال له أبو العتاهية : يا أبا عبد الله ، كيف أنت فى الشعر ؟ قال : أقول فى الليلة اذا سنع القول واتسعت القوافى عشرة أبيات الى خمسة عشر . فقال له أبو العتاهية : لكنى لو شئت أن أقول فى الليلة ألف بيت لقلت ، فقال ابن منذر : أجل ! والله اذا أردت أن أقول مثل قولك :

الا يا عتبه الساعه * أموت الساعه الساعه

قلت ، ولكنى لا أعرد نفسى مثل هذا الكلام الساقط ولا أسمح لها به ، ففجّل أبو العتاهية وقام يجرّ رجله !
ص ١١ ج ١٧ طبع الساسى .

وفى ص ٢٩ أن أبا العتاهية لقي ابن منذر بمكة فجعل يمازحه ويضحكه ثم دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ! هذا ابن منذر شاعر البصرة يقول قصيدة فى سنة وأنا أقول فى سنة ما بين قصائد ، فقال الرشيد : أدخله الى فأدخله اليه وقدّر أنه يضعه عنده ، فدخل فسلم ودعا ، فقال : ما هذا الذى يحكيه عنك أبو العتاهية ؟ فقال ابن منذر : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : زعم أنك تقول قصيدة فى سنة ، وأنه يقول كذا وكذا قصيدة فى السنة ، فقال : يا أمير المؤمنين ! لو كنت أقول كما يقول :

الا يا عتبه الساعه * أموت الساعه الساعه

لقلت منه كثيرا ، ولكنى الذى أقول :

إن عبد المجيد يوم تولى * هدّ رنحا ما كان بالمهدود

مادرى نعشه ولا حاملوه * ماعلى النعش من عقاف وجود

فقال له الرشيد : هاتها فأنشدنيها ، فأنشده ، فقال الرشيد : ما كان ينبغى أن تكون هذه القصيدة إلا فى خليفة أو وليّ عهد ! ما لها عيب إلا أنك قلتها فى سوقة ! وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكاد أبو العتاهية يموت غما وأسفا .

(٢) وردت هذه العبارة مختلطة بعض الشيء فى البيان والتبيين ص ١٤٩ ج ١ طبع سنة ١٩٢٦

(٢٤)

(١) فإن مُنيت بحب الكتابة وصناعتها ، والبلاغة وتأليفها ، وجاش صدرك بشعر
معقود ، أودعتك نفسك إلى تأليف الكلام المنشور ، وتها لك نظم هو عندك
معتدل ، وكلام لديك متسق ، فلا تدعواك الثقة بنفسك ، والعجب بتأليفك أن
تهجم به على أهل الصناعة ؛ فانك تنظر الى تأليفك بعين الوالد لولده ، والعاشق الى
عشيقة ؛ كما قال حبيب :
(٢)

ويسىء بالإحسان ظنا لا كمن * هو بأبنيه وبشعره مفتون^(٣)

ولكن أعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره ، فإن أصغوا إليه ،
وأذنوا له ، وشخصوا بالأبصار واستعادوه وطلبوه منك وامترج ، فأكشف من تلك^(٤)
الرسالة والخطبة والشعر اسمه وأنسبه الى نفسك . وإن رأيت عنه الأسماع منصرفة ،
والقلوب عنه لاهية ، فاستدل به على تخلفك عن الصناعة وتقاصرک عنها ، وأسترب^(٥)
رأيك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة : فقد بلغنى أن بعض الملوك دعا
إنسانا إلى مؤانسته حتى ارتفعت الحشمة بينهما فأخرج له كتابا قد غشاه بالجلود
وجمع أطرافه بالإبريسم وسوى ورقه وزخرف كتابته وجعل يقرأ عليه كلاما قد حبره
فيه وثقه عند نفسه ، وجعل يستحسن ما لا يحسن ، ويقف على ما لا يستثقل

(١) عبارة الجاحظ : « فان أردت أن تكلف هذه الصناعة ، وتلصق الى هذا الأدب ، فقرضت
قصيدة ، أو حبرت خطبة ، أو ألقت رسالة ، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ، ويدعوك عجبك بثمره عندك
الى أن تلنحه وتدعيه » البيان ص ١٤٨ ج ١

(٢) عبر الجاحظ عن هذا المعنى أدق تعبير اذ قال : « فلا تثق في كلامك برأى نفسك ، فانى
ر بما رأيت الرجل يماسك وفوق المماسك حتى اذا صار الى رأيه فى شعره وفى كلامه وفى ابته رأيتته متهافنا
وفوق المتهافت » . (٣) أنظر ديوان أبى تمام ص ٣٣١

(٤) يريد : امترج بغيره من الجيد . (٥) فى الأصل « العيون » وقد آثرنا كلمة الجاحظ .

(٦) فى الأصل « واهية » وهو تحريف .

قراءته حتى أتى على الكتاب ؛ فقال له : كيف رأيت ما قرأتُ عليك؟ فقال : أرى عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه . ففطن له ولم يعاوده إلى أن وقف به على تشوُّر مسجور ثم قذف بالكتاب في النار . وهذا رجل في عقله فضيلة وفيه تمييز .^(١)
وإنما البلية فيمن إذا بينت له سوء نظمه واختياره ، ووقفته على سخافة لفظه ، هجره وعاداك .

(٢٥)

فاجعل هذا الأصل ميزانا تزن به مذهبك في رسائك و بلاغتك ، ولا تخاطبن خاصا بكلام تام ، ولا عاما بكلام خاص . فمتى خاطبت أحدا بغير ما يشا كله فقد أجزيت الكلام غير مجراه وكشفته . وقصدك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيه لقدر كلامك ورفع لدرجته ، قال :

فلم أمدحك تفخيا لشعري * وليكني مدحت بك المديحا^(٢)

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها ونظامها ، ومواردها ومصادرهما . وتجنب ما قدرت الألفاظ الوحشية ، وارتفع عن الألفاظ السخيفة ، واقتضب كلاما بين الكلامين .

الجاحظ : مارأيت قوما أمثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا .

وقال خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج الى كلام ، وأحسنه ما لم يكن بالبدويّ المغرب ، ولا القرويّ المندج^(٣) ، الذي صحّت مبانیه ، وحسنت معانيه ، ودار

(١) مسجور : موفد .

(٢) فضيلة : زيادة وقوة .

(٣) في الأصل « أمدحه » وهو تحريف . راجع ديوان أبي تمام ص ٧١

(٤) المندج : الناقص .

على ألسن القائلين ، وخفّ على آذان السامعين ، ويزداد حسنا على مرّ السنين ،^(٢)
بتجلية الرواة ، وتنقية السراة .

والكاتب المستحق اسم الكتابة ، والبلغ المحكوم له بالبلاغة ، من اذا حاول صنعة
كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من يبايعها ، وظهرت من معادنها ، وبدرت^(٣)
من مواطنها ، عن غير استكراه ولا اغتصاب .

حدثنا صديق للعتابي قال له : اعلم لي رسالة ، واستمده مرة بعد أخرى ، فقال^(٤)
له : ما أرى بلاغتك إلا شاردة ، فقال له العتابي : لما تناولت القلم تداعت على
المعاني من كل جهة ، فأحببت أن أترك كل معنى يرجع الى موضعه ، ثم أجتني لك
أحسنها .

أملى يزيد بن عبد الله أخو دينار على كاتب له وأعجل عليه الإملال فتعثر قلم^(٥)
الكاتب عن تقييد إملاله ، فقال متحرشا : اكتب يا حمار ! فقال الكاتب :
أصلح الله الأمير ! إنه لما هطلت شآبيب الكلام ، وتداقت سيوله على حرف
القلم كل القلم عن إدراك ماوجب عليه تقييده ، فليتك ذا الأمير عذرى . فكان
جوابه أبلغ من بلاغة يزيد .^(٦)

(١) وقع المضارع هنا جميل . (٢) في الأصل : « تمر » .

(٣) في الأصل : « تدرب » وهو تحريف . وبدرت : أسرعت .

(٤) استمده : طالب منه أرضاء المدة ، وفي العتد (فاستمده مدة) .

(٥) في العتد « ذبيان » .

(٦) يقال : أمليت الكتاب وأملته . وقد نزل القرآن بالعتين جميعا . قال تعالى : « وقالوا أساطير

الأولين اكتبها فهى تلى عليه » وقال : « فليعلم عليه وليه بالعدل » . (أنظر ص ١٣٥ من أدب الكتاب) .

(٧) أنظر ما جاء في توقف قلم ابن المقفع في أدب الكتاب ص ١٥٨ وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٣

(٢٦)

وكما انحولى الكلام وعذب ورق وسهات مخارجه ، كان أسهل ولوجا
فى الأسماع ، وأشدّ اتصالا بالقلوب ، وأخفّ على الأفواه ، ولا سيما إذا كان المعنى
البديع مترجما بلفظ موق شريف ، ومعبرا بكلام مؤلف رشيق ، لم يشنه التكلف^(٢)
بميسمه ، ولم يفسده التعقد باستهلاكه ؛ كقول ابن أبى كريمة :

قفاه وجه حسن والذى * قفاه وجه يشبه الشمسا

فهجّن المعنى بتوعر مخارج الحروف . وأخذه الحسن بن هانىء فسّمه وقال :

* بدّ حسن الوجوه حسن قفاكا *

وكلاهما من حسان حيث يقول :

قفائك أحسن من وجهه * وأمك خير من المنذر

وانظر الى سلاسة الحسن بن سهل حيث قال :

شربت بل لنت بل قابلت ذلك بذا * فأنت لاشك فيك السهل والجليل

وكتب عيسى بن هبة كتابا الى بعضهم فعقد كلامه وجاز المقدار فى التنطع ؛^(٣)

فوقع له :

أنى يكون بليغا * من اسمه كان عيا

وثالث الحرف منه * إذا كتبت مسيا^(٤)

ودخل كاتب على مريض فوجده يئنّ فخرج من عنده فوجد طائرا يقال له

« الشفانين » ، فاشتراه وبعث به إليه ، وكتب كتابا يتنطع فيه ، ويدكر

(١) فى الأصل : « للفظ » وهو تحريف .

(٢) عل الصواب : « لم يسه » .

(٣) فى العقد « الى أخيه أبى الحسن » .

(٤) الشطر الأخير غير واضح المعنى . وفى العقد : « إذا كتبت شيئا » وهو تحريف أغمض .

أنه يقال له الشفانين شفاء من الأئين . فأجابه : لو عطست ضباً لم تكن عندي
إلا نبطياً ، فأقصر عن بغضك وسهل كلامك . ومثله بمحمد الموصلي يهجو حبيب بن
أوس الطائي :

أنت عندي عربى* (٤) ليس في ذلك كلام (٥)
شعر ساقيك ونفخ* (٦) نذيك نحرأى وثمام
أنا ما ذنبى إن كذ* (٧) بنى فيك الأنام
وقفاً يحلف ما إن* أعرفت فيه الكرام

وسألني بعض أهل العلم أن أكتب له قصة الى جعفر بن عبد الواحد القاضى
وقال : اكتب لى قصة سهلة بلغة الألفاظ ، فقلت له : دعنى أكتب لك ما يصلح
للقضاة ، فغضب وقال : ما أسأل أن تعطبنى شيئاً ، إنما أسألك هذا المعنى الرخيص .
فأحتملت عتبه لذمام ، فكتبت له قصة لا تصلح أن تدفع إلا لرؤبة بن العجاج
يقرأها أو الطرّماح ، فلما حصلت بيد القاضى أراد قراءتها فإذا هى مغلقة عليه ، فقال
له : أنت كتبت هذه القصة ؟ قال : نعم ، قال : إذا فقرأها ، فذهب ليقرأها فإذا

-
- (١) يشير الى أف الضباب من طعام الأعراب . وكانت الشعورية تعبير العرب بأكل الضباب .
 - أنظر ص ١٥ من رسالة « الحنين إلى الأوطان » للجاحظ . وفي العقد بقية طويلة ، ص ٢١ ج ٣
 - (٢) كذا بالأصل والمعنى بها غير واضح . وفي العقد « بغضك » وهى جملة وقعت فى غير مكانها لأن المؤلف ماض فى الكلام عن تهجين ذلك الكاتب المتطلع .
 - (٣) لعل الصواب : وتمثل بقول محمد الموصلي ، الخ .
 - (٤) فى الأصل « عربى » وهو تحريف .
 - (٥) فى الأصل « عربى والسلام » والنسب أئبناه أوفى نوح الطعام كما رواها العقدة .
 - (٦) ثمام بالناء المثلثة بخلاف ما كان فى الأصل بالناء المثناة من فوق .
 - (٧) البيت فى الأصل محرف ، والتصحيح عن العقدة . وقد رتبه اليتيم الأخير بما يناسب ورواه العقدة نبطياً ، وفق . فراجع هناك .
 - (٨) يريد : العهد كان له .

هي بالسودانية استعجاما عليه ؛ فقال له : أصاح الله القاضى إنما أقرؤها فى بيتى ؛
فقال له : فاطلب حاجتك اذا فى بيتك ! فرجع إلى غضبان أسفاً يشتم ويؤذى ،
وسألنى أن أكتب له قصة على ما أرى ، فكتبت له كتابا يشبه أن يكون من مثله
الى القضاة ، فقرأها وقضى حاجته ، وعلم أنه لم يكتب واحدة منهما !

والكتاب اذا لم يكن شبيها بحاجة صاحبه كان أحد الأسباب المانعة .

(٢٧)

والمعانى كلها ممثلة والكلام مشبعا ولكن سياسته صعبة وتأليفه شديد إلا على
جهاذته وفرسانه أمراء الكلام يصرفونه كيف شاءوا . ولا يستحق اسم البلاغة
حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، ويكون اللفظ أسبق الى الأسماع من معناه
الى القلوب .

الجاحظ : كان لفظه فى وزن إشارته ، وطبعه فى معناه فى مطابقة معناه .

ذكر الحسن بن وهب أحمد بن يوسف فقال : ما كنت أدرى ألفظه آنى
أم معناه ، أو معناه أجزل أم لفظه .

والمعانى وإن كانت كامنة فى المصدر فإنها مصورة فيها ، ومتصلة بها ، وهى
كالآلى المنظومة فى أصدافها ، والنار المخبوءة فى أحجارها ، فإن أظهرته من أكنانه
وأصدافه تبين حسنه ، وإن قدحت النار من مكانها وأحجارها انتفعت بها ، وإلا

(١) لعل أصل الجملة : « فاذا هى أشبه بالسودانية استعجاما عليه » وبذلك يتضح معناها .

(٢) فى هذه الكلمة وما بعدها غموض ولا موجب لنصب « مشبعا » . والأستاذ مرسيه يقترح كلمة
« متأللة » وكلمة « مشعب » .

(٣) فى الأصل : « الأسبق » وهو تحريف . انظر العمدة ص ١٦٣ ج ١ وفى نهاية الأرب :

« وقالوا : لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يكون معناه الى قلبك أسبق من لفظه الى سمعك » ص ٨ ج ٧

(٤) لعله : « .كامنها » .

(١)
 بقيت محجوبة مستورة ، وإنما يستثار الكامن منها ، ويُستخرج المستسر من
 جواهرها ، بقدر حذق المستنبط ، وصواب حركات المستخرج ، وقصد إشارته ،
 ولطف مذاهبه . وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضح عن المعنى ولا يصيب
 إشارته ، وكلما كان الكلام أفصح ، والبيان أوضح ، كان أدل على حسن وجه المعنى .
 [وقد شبهوا المعنى^(٢)] الخفى بالروح الخفى ، واللفظ الظاهر بالحثان الظاهر . وإذا لم
 ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متسقا .

(٢٨)

والدال على المعنى أربعة أصناف : لفظ ، وإشارة ، وعقد ، وخط .

وذكر ارسطاطاليس خامسا وهي التي تسمى النصيبة ، وهي الحالة الدالة التي
 تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة الناطقة بغير لفظ والمشيرة إليه بغير يد ، وذلك
 ظاهر في خالق السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وهي داخلة في جملة
 هذه المعاني الأربعة وخارجة منها بالحلية .

ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبها ، وحلية غير
 مشاكلة لحلية أختها ، غير أنها في الجملة كاشفة عن أعيان المعاني . وأوضح هذه الدلائل
 صنفان : وهما اللسان والقلم ، وكلاهما يترجمان ويدلان على القلب ، ويستمليان
 منه ، ويؤديان عنه ما لا تؤدي هذه الأصناف الباقية .

(٣)
 وأما اللسان فهى الآلة التي يخرج الانسان بها من حد الاستبهام الى حد
 الإنسانية ، ولذلك قال صاحب المنطق : حد الانسان الحى الناطق [وقال على بن

(١) فى الأصل : « وربما » .

(٢) زدنا كلمة « وقد شبهوا المعنى » ليتسق الكلام ، ونظنها سقطت من النسخ .

(٣) أنت الضمير مراعاة للخبر . وفى العقد « فهو »

(١)
عبيدة : [إنما يبين عن الإنسان اللسان ، وعن المودة العينان ، [وقال هشام بن
عبد الملك : [والله سبحانه رفع درجة اللسان فأنطقه من بين الجوارح بتوحيده ،
وما جعل الله من عبّر عن شيء مثل من لم يعبر عنه .

وقال آخر : الرجل محبوب تحت لسانه . وقالوا : المرء بأصغريه قلبه ولسانه .
وقال الشاعر :

وما المرء إلا الأصغر إن لسانه * ومعقوله والجسم خلق مصوّر

(١)
[فإن ترها راقتك يوماً فرمها * أمر مذاق العود والعود أخضر]

الأعور التيمي :

(٢)
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال آخر :

إن الكلام نفى الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

الطائي :

ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من خدام الفؤاد

(٢٩)

وللخط صورة معروفة ، وحلية موصوفة ، وفضيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف ،
لأنه ينوب عنها في الإيضاح عند المشهد ، ويقضها في المغيب [ولأن الكتب
تقرأ في الأماكن المتباينة ، والبلدان المتفرقة ، وتدرس في كل عصر وزمان ، وبكل
لسان ، واللسان وإن كان زلقاً فصيحاً لا يعدو سامعه ، ولا يجاوزه إلى غيره] (٣) .

(١) زيادة عن العقد .

(٢) هذا البيت نسب إلى زهير .

(٣) زيادة عن العقد .

(١) وكفى بفضيلة القلم والخط قول الله عز وجل : ﴿الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم﴾ وأقسم به كما أقسم بغيره ، ثم أقسم بما يكتبه القلم إفصاحا عن حاله ، وإعظاما لشأنه ، وتنبها لذكوره ، فقال : ﴿وما يسطرون﴾^(٢) .

(٣) ومن فضيلة الخط أنه لسان اليد ، ورسول الضمير ، ودليل الإرادة ، والناطق عن الخواطر ، وسفير العقول ، ووحى الفكر ، وسلاح المعرفة ، ومحاذئة الأخلاء على التنائى ، وأنس الإخوان عند الفرقة ، ومستودع الأسرار ، وديوان الأمور ، وترجمان القلوب ، والمعبر عن النفوس ، والمخبر عن الخواطر ، ومورث الآخرمكارم الأهل ، والناقل إليه مآثر الماضى ، والمخلد له حكمته وولمه ، والمسامر للعين بسر القلب ، والمخاطب عن الناصت ، والمجادل عن الساكت ، والمفصح عن الأبكم ، والمتكلم عن الأخرس ، الذى تشهد له آثاره بفضائله ، وأخباره بمناقبه .

(٣٠)

(٤) وقد وقعت البلاغة من العلم علو القدر وبادخ العز كأبى مسلم صاحب الدولة فزقت شملته ، وبددت جمعته ، ونقضت برمه ، وأفسدت صلاحه ، وضعضعت بنيانه ، مع ذكائه وتفطنه ، ومكايدده ودهائه ، وأصاله رأيه وشدة شكيمة ، وامتناعه على أبى جعفر ونفاره عنه ، كيف استفزه ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس وجبل ابن يزيد واستمالوه بسحر ألفاظهم ، وبلاغة أعلامهم ، حتى نزل من بادخ عزه ،

(١) فى الأصل : « العلم » وهو تحريف .

(٢) أكثر ما جاء فى هذا الموضوع متنس من كلام الجاحظ . راجع البيان والتبيين ج ١

ص ٦٨ — ٧١

(٣) فى نهاية الأرب ج ٧ ص ١٣ « بهجة الضمير » وما هنا أدق .

(٤) على الصواب : « وضعت » لتقابل « رفع » فإى بعد .

(٥) لعله « القلم » .

(٦) لعل الصواب : « على » .

وجاء مبادراً حتى وقع في الشَّرْك المنصوب له ، فتمفرق جمعه ، وانطفأ نوره ، وصار
خبيراً مسائراً ، ورسماً دائراً .

ورفع القلم خاشع الطرف ، صغير الخطر ، لئيم الخنس ، درج من عش
التجار ، ونشأ بين المكيال والميزان ، كيف أشالت البلاغة بضبعيه ، ورفعت من
ناظريه ، حتى شافهت به عنان السماء ، ورفعت بناءه فوق البناء ، حتى طلبه الراكب ،
وقصده الطالب ، وخشعت له الرجال ، ولحظته العيون بالوقار ، وتمكن من
الصنائع ، ومُدت نحوه الأصابع ، فشكرت منه اللفظة ، ورُجيت منه اللحظة ، كحمد
ابن عبد الملك بن الزيات ، وفيه يقول علي بن الجهم :

أحسن من عشرين بيتاً سدى * جمعك معانٍ في بيت^(٢)
ما أحوج الملك إلى مطرة * تغسل عنه وضر الزيت
فأجابه محمد بن عبد الملك :

رقيت في القول إلى خطة * قدرك فيها قد تعدت
قيرتم الملك فلم تُنقه * حتى غسلنا القار بالزيت

ومدحه حبيب بن أوس يمدحه ويصف قلمه :

لك القلم الأعلى الذي بشباته^(٤) * أصاب من الأمر الكلي والمفاصل

وكان محمد من أطف الناس ذهنًا ، وأرقهم طبعًا ، وأصدقهم حسًا ، وأرشقهم
قلماً ، وأملحهم إشارة ، إذا قال أصاب ، وإذا كتب أبلغ ، وإذا شعر أحسن ، وإذا
اختصر أغنى عن الاطالة : أمره الواثق أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ، ويعلمه

(١) في الأصل : « وائرا » وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « معانهم » وهو تحريف .

(٣) يظهر أنه سقطت كلمة « فقال » .

(٤) في الأصل : « بشباته » وهو تحريف . وفي العقد « بسنانه » .

انه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم ، وفوض ذلك لابن عمه إسحاق بن إبراهيم ؛
فكتب : أما بعد ، فان أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر
والعواصم فيجعلها في شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .^(١)

سهل بن بركة يهجو أبا نوح النصراني الكاتب فقال :

بأبي وأمي ضاعت الأحلام ؟ * أم ضاعت الأذهان والأفهام ؟
من صد عن دين النبي محمد * أله بأمر المسلمين قيام ؟
إلا تكن أسيافهم مشهورة * فينا فتلك سيوفهم أقلام

(٣١)

قال عبد الرحمن بن كيسان : استعمال القلم أجدر بإحضار الذهن عند
تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام .
ولم يختلف في شرف القلم وإنما اختلف في كيفية البلاغة وماهيتها . وقد مدحها
كل قوم بأوضح عبارتهم وأحسن بيانهم ، فقال صاحب اليونانيين : البلاغة تصحيح
الأقسام واختيار الكلام .

الرومي : البلاغة وضوح الدلالة واتهاز الفرصة وحسن الإشارة .^(٢)

الفارسي : هي معرفة الفصل من الوصل .

(١) نظير هذا ما قاله الرشيد ليجي بن خالد : يا أبت إني أردت أن أجعل الخاتم الذي في يد الفضل
إلى جعفر . وقد احتشمت منه فاكفنيه . فكتب إليه يجي : قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن
يحول الخاتم من يمينك إلى شمالك (ص ٦٨ ج ٢ زهر الآداب) .

(٢) في الأصل : «الكلام» وهو تحريف . ورواية الجاحظ : «استعمال القلم أجدر أن يحض
الذهن على تصحيح الكتاب ، الخ» ح ١ ص ٧١

(٣) الذي في البيان والتبيين أن هذا جواب الهندي راجع البيان صفحة ٧٥ ، ٧٦ ج ١ فإن
ابن المدبر اختصر هنا ما بسطه الجاحظ هناك . وانظر زهر الآداب ج ١ ص ١٠٥

(١) الهندي : هي البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم أن يدع الإفصاح بها إلى الكتابة عنها اذا كان الإفصاح أوعر طريقا ، وربما كان الاطراق عنها أبلغ (٢) في الدرك وأحق بالظفر .

غيره : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة (٣) الخلق بما التبس من المعاني وغمض ، وبما شرد عليك من اللفظ وتعذر . ثم قال : وزين ذلك كله وبهائوه وحلاوته أن تكون الشئائل معتدلة ، والألفاظ موزونة ، واللهجة نقية ، فان جامع ذلك السنن والسمت والجمال وطول الصمت فتمسد تم (٤) كل التمام . (٥)

(٦) وقيل لهندي : ما البلاغة؟ فأخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها : أول البلاغة احتمال آلة البلاغة ، وذلك أن يكون البليغ رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوک بكلام السوقة ، ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ويصفى بها كل التصفية ، ويهذبها غاية التهذيب ، ولا يكون (٨)

(١) عبارة الجاحظ : «ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكتابة عنها ، الخ» .

(٢) عبارة الجاحظ : الاضراب عنها صفحا .

(٣) يظهر أن كلمة «قلة» من زيادة النسخ وفي البيان : «قلة الحرف» وهي أدخل في الغموض .

(٤) يظهر أنه سقطت كلمة «وسناؤه» وبها تم السجعة ، وهي مثبتة في البيان .

(٥) زاد الجاحظ : «وكل كل الكمال» .

(٦) في البيان وزهر الآداب : «اجتماع» وهي المناسبة للمقام هنا .

(٧) الجأش : رواع القلب اذا اضطرب عند الفزع (قا،وس) .

(٨) في الأصل : «بصعها كل التصعبة» وهو تحريف . والتصحيح عن البيان وزهر الآداب .

كذلك حتى يصادف فيلسوفاً حكيمًا عايمًا ومن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط
مشتركات الألفاظ .^(٥)

أنو شروان لبزر جمهر : متى يكون العبيّ بليغًا؟ فقال : اذا وصف بليغًا .

أرسطاطاليس : البلاغة حسن الاستعارة .

بشر بن خالد : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام ،^(٦)

والدلالة بالقليل على الكثير .

خالد بن صفوان : ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها

إصابة المعنى ، والقرع بالجمّة .^(٧)

عمر بن عبد العزيز : البليغ من اذا وجد كثيرا ملاءه ، واذا وجد قليلا كفاه .

ابن عتبة : البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الجمّة ، والاستغناء بالقليل عن الكثير .

بعضهم^(٨) : إني لأكره للانسان أن يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار عقله ،^(٩)

كما أكره أن يكون مقدار عقله فاضلا عن مقدار لسانه وعلمه .^(١١)

(١) في البيان وزهر الآداب : « ولا يفعل ذلك » .

(٢) عبارة الجاحظ والحصرى : « حتى يصادف حكيمًا ، أو فيلسوفاً عايمًا » .

(٣) هكذا في الأصل ، وفي زهر الآداب : « قد تعود » وهو أصح .

(٤) في البيان وفي الأصل : « فضل » وقد آثرنا عبارة زهر الآداب .

(٥) في الأصل : « أسقط مشترك اللفظ » . (راجع زهر الآداب ج ١ ص ٩٥ والبيان ج ١

ص ٧٩) . (٦) في العقد « جمع » .

(٧) عبارة البيهقي : « والقصد للجمّة » انظر المحاسن والمسارى ص ٢٧٤ وهي كذلك في العقد .

(٨) هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٤) .

(٩) كلمة « للانسان » غير موجودة في رواية الجاحظ لأن محمد بن علي قال هذه العبارة في بلاغة

بعض أهله . (١٠) رواية الجاحظ « علمه » .

(١١) رواية الجاحظ : « كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله » وهي أدق .

يكفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى
الناطق من سوء فهم السامع .^(١)

(٢)
عمرو بن عبید : ما البلاغة ؟ فقال : ما بلغك الجنة ، وعدل بك عن النار ،
وما بصرك بمواقع رشدك ، وعواقب غيبك . فقال السائل : ليس هذا أريد . فقال :
من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن
القول ؛ قال : ليس هذا أريد . [قال] قال النبي عليه الصلاة والسلام : ^(٣) «إنا معاشر
الأنبياء بكاءون» وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله . فقال له السائل :
ليس هذا أريد . قال : كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت ، فقال :
ليس هذا أريد . فقال : فكأنك إنما تريد تحوير اللفظ في حسن إفهام [قال : نعم ،
قال : [إنك [إن] أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة عن
المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المریدين ، بالألفاظ المستحسنة في الآذان ،

(١) لم يذكر المؤلف صاحب هذه الحكمة ، وقد وردت في الأصل متصلة بما قبلها ، وذلك خطأ ،
وهي من كلام الامام ابراهيم بن محمد (أنظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥ وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٥)
(٢) في زهر الآداب ج ١ ص ٩٣ طبع المطبعة الرحمانية ونهاية الأرب للنويري (ج ٧ ص ٧ طبع
دار الكتب المصرية) : قيل لعمرو بن عبید الخ وهو أنسب .

(٣) هو حفص بن سالم كما في زهر الآداب ج ١ ص ٩٤ .

(٤) في الأصل «يسمع» وهو تحريف بدليل قوله : «ومن لم يحسن الاستماع» وهي مثبتة في زهر
الآداب «يستمع» وكذلك في البيان والتبيين .

(٥) الزيادة عن زهر الآداب ج ١ ص ٩٣ ونهاية الأرب ج ٧ ص ٧ للربط .

(٦) من البك ، وهو قلة الكلام . وفي نهاية الأرب والبيان والتبيين : «بكاء» ومفردتها بكى .

(٧) رواية الجاحظ : « كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة

السكوت ومن سقطات الصمت » وهي أوفى وأدق . (أنظر ص ٩٠ ح ١) .

(٨) رواية الجاحظ «تحوير اللفظ» .

(٩) الزيادة عن نهاية الأرب وزهر الآداب .

المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم ،
بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت
من الله سبحانه جزيل الثواب .

الخليل بن أحمد : كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فان استطعت أن
يكون لفظك لمعناك طبقا ، ولتلك الحال وفقا ، وآخر كلامك لأقوله مشابها ، وموارده
لمصادره موازنا ، فافعل . واحرص أن تكون لكلامك متهما وإن ظرف ، ولنظامك
مستريبا وإن لطف ، بمواتاة آلتك لك ، وتصرف إرادتك معك ، فافعل إن شاء الله .



وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معان لم تفترحها بلاغة الناطقين ، ولا لمستها أكف
المفوهين ، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ، ولا سبق الى ألفاظها أذهان الناطقين ؛
فاجعلها مثالا بين عينيك ، ومصورة بين يديك ، ومساورة لك في ليلك ونهارك ،
تهطل عليك شآبيب منافيتها ، ويظلك منها بركاتنا ، وتوردك مناهل بلاغتنا ، وتدل
على مهيح رشدها ، وتصدرك وقد تقع ظمؤك بينابيع بحر إحساننا ، إن شاء الله
عز وجل .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) الخبر غير مطابق ، وربما كان الأصوب : « وموارده لمصادره موازنا » .

(٢) في نسخة : « رقيق لخليل بن أحمد : ما البلاغة كما تتدل : اقرب حروفها ، وبعد . انتهى » .

فهرس الموضوعات

صفحة	صفحة
٢٦	٤
٢٧	٥
٢٧	٦
٢٨	٧
٢٨	٧
٢٩	٨
٣٠	٩
٣٠	١٠
٣١	١١
٣٢	١٢
٣٣	١٣
٢٤	١٤
٣٥	١٥
٣٥	١٥
٣٦	١٧
٣٧	١٨
٣٨	١٩
٣٩	٢٢
٤٠	٢٢
٤١	٢٣
٤٢	٢٤
٤٢	٢٥
٤٣	٢٥
٤٤	٢٦
٤٨	٢٦

فهرس الأعلام

ابن عبد ربه (صاحب العقد) ١٤٦٩	حرف الألف
ابن عبد كان ١٣	ابراهيم بن محمد ٤٧
ابن عبد الحكم ١٦	ابراهيم المزي ١٧
ابن المدبر ١٣، ١٨، ٤٤٦	أبو العيس ١٣
ابن المقفع ٢٢، ٣٢، ٤٢	أبو تمام ٤٢، ٤١
ابن منذر ٣٢، ٣٣	أبو جعفر المنصور ٤٢
ابن هاني ٢٥	أبو ذؤيب ٢٢، ٢٤
حرف الباء	أبو العتاهية ٣٢، ٣٣
البي ٩	أبو العيلاء ١٣، ٢٥
بديع الزمان ٧	أبو مسلم الخراساني ٤٢
بزرجمهر ٤٦	أبو نوح النصراني ٤٤
بشر بن خالد ٤٦	أحمد بن طولون ١٣
البيهقي ٤٦	أحمد بن يوسف ٣٩
حرف الشاء	الأحوص ١٥
الثعالي ٩	أرسططاليس ٤٠، ٤٦
ثعلب ١٣	اسحاق بن ابراهيم ٤٤
حرف الجيم	الأصمعي ١٢، ٢٢
الجاحظ ٥، ٩، ٤٤، ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٤٢	الأعور التيمي ٤١
٤٤، ٤٦، ٤٧	أنوشروان ٤٦
جبل بن يزيد ٤٢	(ابن ...)
جعفر بن عبد الواحد ٣٨	ابن أبي كريمة ٣٧
جعفر بن محمد ١٧	ابن الأعرابي ١٣
الجوهري ٢٨	ابن بسام ٩
	ابن درستويه ٢٣، ٤٠، ٢٤

حرف الحاء

الحباب بن المنذر ٢٠

حبيب بن أوس ٣٨، ٣٤، ٣٢ (أنظر أبو تمام)

حسان بن ثابت ٣٧

الحسن بن سهل ٣٧

الحسن بن هاني ٣٧، ٢١

الحسن بن وهب ٣٩

الحصري ٤٦

الحطيمية ١٩

حدون ١٣

حرف الخاء

خالد بن صفوان ٤٦، ٣٥

الخفاجي ٢٨

الخليل بن أحمد ٤٨

حرف الدال

دارد بن خانف ١٧

دوزي ٢٩

حرف الراء

الرشيد ٤٤، ٣٣، ٢٢

رؤبة بن العجاج ٣٨

حرف الزاي

الزبير ١٣

زهير ٢٢، ٦٧

حرف السين

سهل بن أبي وقاص ١٦٠، ١٢

سعيد بن حميد ٢٥، ١٨

سليمان بن وهب ١٩

سهل بن بركة ٤٤

حرف الشين

الشعبي ٣٢

حرف الصاد

الصاحب بن عباد ٩

صالح بن عبد القدوس ٤٢

الصولي ٢٦، ٢٤، ١٤، ١٣، ١٢

حرف الطاء

الطرماح ٣٨

عبد الحميد بن يحيى ١٣

عبد الرحمن بن حزم ٩

عبد الرحمن بن كيسان ٤٤

عبد الله بن طاهر ٤٣، ٢٣، ١٤

عبد الله بن عبد الملك ١٦

عبيد الله بن قيس الرقيات ٣٢

العنابي ٣٦، ٣١

العتيبي ٣٢

عثمان بن عفان ١٩

العربي ٢٦

عريب ١٨، ١٣

العلاء بن الحضرمي ١٥

علي بن أبي طالب ٢٤، ١٦، ١٢

علي بن الجهم ٤٣

علي بن زبير ٢٥

علي بن عبيدة ٤٠

عمر بن الخطاب ١٢

مخلد الموصلى ٣٨	عمر بن عبد العزيز ٤٦
مرسيه ٣٩	عمر بن لجأ ٣٣
امرؤ القيس ٢٣	عمرو بن عبيد ٤٧
المقديسى ٩	عمرو بن معد يكرب ٢٤
موسى بن الطائفى ٩	عيسى بن لهيعة ٣٧
حرف النون	حرف الفاء
النايعة ١٩	الفيروز ابادى ٥
النحاس ١٣	حرف القاف
حرف الواو	القلقشندى ١٣٦٩
الواثق ٤٣	حرف اللام
حرف الهاء	ليد ٢٠
هشام بن عبد الملك ٤١	حرف الميم
حرف الياء	المأمون ١٣
ياقوت ١٨٦١٧٦٩	المبرد ١٣
يحيى بن خالد ٤٤	محمد بن عبد الملك بن الزيات ١٤ و ٤٣
يحيى بن عيسى ١٣	محمد بن على ٤٦
يحيى بن المبارك ١٣	محمد ابن عيسى ٢٣
يزيد بن عبد الله ٣٦	محمد بن مناذر ٣٣
	محمود الوراق ١٢

Etude critique

sur

LA LETTRE VIERGE

D'IBN EL - MUDABBER



L'Art d'écrire chez les Arabes au III^e siècle de l'Hégire

Etude critique
sur
LA LETTRE VIERGE
D'IBN EL - MUDABBER

Par

ZAKI MUBARAK

Docteur ès Lettres de l'Université de Paris

Docteur ès Lettres de l'Université Egyptienne

Diplômé de l'Université d'El Azhar

Diplômé d'Etudes Supérieures de l'École des Langues Orientales de Paris

Directeur de l'enseignement de l'arabe à l'Université Américaine du Caire

Professeur d'arabe au Lycée Français du Caire

DEUXIÈME ÉDITION

LE CAIRE,
IMP. DE LA BIBLIOTHÈQUE EGYPTIENNE

—
1931

DU MÊME AUTEUR

LA PROSE ARABE

au IV^e siècle de l'Hégire (X^e siècle)

A

Monsieur le docteur Snouck Hurgronje

Hommage de respectueuse gratitude.

Zaki Mubârak

Considération sur l'Art d'écrire chez les Arabes au III^e siècle de l'Hégire

La lettre que je présente aujourd'hui à l'École des Langues Orientales de Paris a déjà été publiée en 1912 - et pour la première fois, au Caire, dans un intéressant recueil qui paraissait alors sous les auspices et la direction de S. E. Mohammad Kordi 'Ali محمد كودي علي, ministre de l'Instruction Publique en Syrie. Ce premier éditeur disait l'avoir trouvée dans un ancien manuscrit faisant partie de la bibliothèque du Cheikh Taher El-Gazaïri طاهر الجزائري, et la publier sur le texte de ce seul document, faute d'en avoir trouvé d'autre.

Cette lettre est d'une haute importance. Personne, cependant, à ma connaissance ne s'y est intéressé après sa publication; pas même l'érudit qui la publiait, puisqu'il n'a joint à son texte aucun commentaire. Quant aux historiens de la littérature arabe, en Egypte, ils ont laissé passer l'évènement sans le relever; nul d'entre eux n'a songé à utiliser le document pour une étude sur l'art d'écrire.

J'ai demandé moi-même à M. Kordi 'Ali, dans une lettre, si depuis la publication de ce texte il en avait rencontré un autre manuscrit ou trouvé quelque renseignement; s'il avait enfin relevé lui-même quelques fautes de copiste ou des altérations. Dans sa réponse il m'indiquait n'avoir découvert aucun autre manuscrit de la Lettre - sans doute parce que les gens du pays ont le sens du mercantilisme plus encore que les frères de Joseph أبيع من إخوة يوسف; qu'il existait sans doute des fautes et des altérations dans le texte qu'il avait publié, comme il en va toujours des anciens manuscrits, quand ils n'ont pas eu la chance d'être écrits par des mains savantes ou encore corrigés par des lettrés, égaux en savoir à l'auteur lui-même.

J'ai donc poursuivi mon étude personnelle, attentivement, ce qui m'a permis de relever un certain nombre de leçons fautives;

puis, j'ai repris ma lecture mot à mot avec Mr. le Professeur Marçais qui m'a aidé à dissiper quelques obscurités. Je ne crois pas trop me flatter en pensant que ces efforts me permettent de présenter un texte amélioré à l'École des Langues Orientales de Paris. Il m'eût agréé fort d'écrire la présente introduction dans ma langue maternelle, mais Mr. Marçais m'en a dissuadé, estimant avec raison sans doute qu'il fallait songer aux lecteurs qui ne suivent pas aisément un texte arabe dans l'original, et l'écrire en français.

J'expose ici les idées principales de la Lettre et je les compare à celles qu'à la même époque Al-Gahiz الجاحظ, Al-Soli الصولي, Ibn-Durustuyah ابن درستويه et Ibn 'Abd Rabbih ابن عبد ربه ont exprimées sur le même sujet. (1)

L'intérêt de cette étude est de préciser la nature du mouvement littéraire et des théories touchant l'art d'écrire, au III^e Siècle de l'hégire; c'est en quelque sorte un prologue pour mon ouvrage sur la prose arabe au IV^e Siècle.

II

Ibrahim Ibn El-Mudabber ابراهيم بن المدبر, l'auteur de la Lettre Vierge الرسالة العذراء, à la fois écrivain et poète est mort à Bagdad en 279. Il appartient par conséquent au III^e siècle de l'Hégire. Après avoir occupé différents postes éminents, il devint le ministre d'Al-Mo'tamed المعتمد. En cette qualité, on le voit fort entouré par les autres poètes et littérateurs qui en attendaient quelque faveur, et l'on trouve à ce sujet pas mal d'anecdotes savoureuses dans les recueils littéraires. Un jour par exemple, Al-'Atawi العطاوي le poète, s'étant rendu chez lui pour le voir, se heurta au refus du portier; il se retira mais adressa aussitôt à Ibn El-Mudabber les deux vers suivants :

(1) Il semblerait que le nom d'Ibn Kolaïba ابن قتيبة dût être cité ici au premier rang, puisque son ouvrage Adab El-Katib أدب الكاتب est consacré à l'art d'écrire. En réalité, il s'agit plutôt là de philologie et non de rhétorique. Nous avons pourtant rapproché son texte de nos observations, dans l'édition même de la Lettre Vierge, toutes les fois qu'il a été possible de le trouver utile à notre objet.

“Je venais, poussé par le désir de vous voir; mais dans les gens de votre suite, je n'ai trouvé que visages de bois”.

“On dirait que je suis un créancier importun qu'on chasse ou un espion”.⁽¹⁾

Une autre fois, c'est Abou El-'Aynâ أبو العيناء qui vient chez 'Obaïd Allah Ibn Solaïman عبيد الله بن سليمان pour lui exposer une plainte. “Comment? répond 'Obaïd Allah, mais nous avons écrit à Ibn El-Mudabber afin qu'il arrange votre affaire”.

“C'est vrai, Seigneur, vous avez écrit; mais à un homme qui est prisonnier de la dure pauvreté, jusqu'à l'humilité de la captivité. C'est pourquoi, il m'a déçu”.

“Mais n'était-ce pas vous qui l'aviez choisi pour patron? répartit 'Obaïd Allah”.

“Que peut-on me reprocher! dit Abou El-'Aynâ. Mais je ne suis pas le premier qui se soit trompé. Moïse avait à choisir soixante-dix sots.⁽²⁾ Le Prophète prit Ibn Abi Sarh ابن أبي سرح pour son secrétaire; il apostasia par la suite. 'Alî Ibn Abi-Taleb علي بن أبي طالب a choisi Abou-Mousa أبو موسى comme arbitre; et il arbitra contre lui”.⁽³⁾

La captivité dont parle ici Abou El-'Aynâ à propos d'Ibn El-Mudabber était réelle: Les Zangs l'avaient fait prisonnier à Basra et enfermé. Il s'échappa d'ailleurs et s'enfuit après avoir percé une muraille; son évvasion a fourni à Al-Buhtorî le sujet d'un beau poème. ⁽⁴⁾

(1) Yakout ياقوت - p. 292, vol. I.

(2) Allusion à un verset du Coran (سورة الأعراف 154) Moïse eut à choisir 70 hommes: ils étaient tous sots.

(3) Zahr El-Adâb زهر الآداب - p. 256, vol. I. - Ibn Abi Sarh fut d'abord le secrétaire du Prophète: il l'abandonna ensuite, et trahit l'Islam pour se rejoindre à ses ennemis.

(4) Zahr El-Adâb - p. 257, vol. I.

Les renseignements sur Ibn El-Mudabber se trouvent dispersées çà et là dans différents recueils.⁽¹⁾ Une part de sa célébrité lui vient de son amour pour 'Arib عريب la belle chanteuse. Il fut aussi l'intime ami d'Al-Gâhiz et tous deux passaient ensemble des veillées intéressantes. J'imagine que cette grande amitié fut une des causes qui ont incité Ibn El-Mudabber à composer son ouvrage sur l'art d'écrire, car je n'ai lu nulle part qu'il s'intéressât particulièrement à ce genre d'études. Cependant, j'ai trouvé chez Al-Sôli un mot qui semble bien indiquer chez Ibn El-Mudabber une certaine compétence pour la critique des expressions : la citation d'Al-Sôli est presque identique à celle qui se trouve dans la Lettre Vierge à propos des mots : “جعلت فداك”.— Cela seul authentifierait la Lettre comme l'œuvre d'Ibn El-Mudabber. (2)

La rhétorique, dans ce morceau, n'est pas celle dont on a usé après lui. L'allure y est plus franche, plus directe que chez Al-Gahiz même : le souffle est plus chaud. L'auteur s'adresse aux écrivains des bureaux administratifs, à ceux par conséquent qui servent de secrétaires aux rois et aux Califes. Certains passages sont tout à fait originaux, et mettent bien en valeur les qualités et l'importance de la prose, ainsi que l'influence et l'autorité que le talent donne à l'écrivain.

La lettre dans son ensemble est une œuvre remarquable. L'auteur l'avait nommée “la Vierge” parce qu'il pensait y avoir examiné des questions que personne avant lui n'avait abordées;

(1) Sa biographie se trouve dans Al-Aghani الأغانى vol. 10, cf. aussi les pages 188-31-59 du vol. 18. — 35 et 36 du vol. 20. — 175; vol. 6 — 90 et 92. vol. 15 11-30; vol. 13; enfin 26-29-108-109-113 vol. 9 - On peut consulter aussi Yakout: p. 155-409 vol. 2-61-65 vol. 6.-93-94 vol. 2 - Egalement Masalek El-Absar مسالك الأبرار p. 320 vol. I. Nishwâr p. 131 vol. 1; enfin Zahr El-Adâb p. 113-140. vol. 1.

(2) Adab El-Kullâb أدب الكلاب vol. 154.

en fait, un certain nombre de celles qu'il a traitées, Al-Gabiz les avait déjà étudiées, mais cependant, d'une manière générale le titre se justifie; c'est bien là une "Lettre_Vierge".

III

Ibn El-Mudabber donne la plus grande importance à la forme. Il observe que les mots doivent être choisis selon la situation du correspondant, selon son goût et son degré de culture qui dépendent eux-mêmes des modes adoptées dans les différents milieux sociaux. Telles expressions, qui donnent pourtant un sens exact et précis, doivent être écartées, si elles ne sont pas celles qu'admet la mode particulière du milieu dans lequel vit l'interlocuteur. Tous les mots d'ailleurs doivent être choisis pour la clarté et la solidité avec lesquels ils expriment le sens—enfin, leur place dans la phrase importe également, afin qu'ils ne paraissent pas disparates à l'endroit qu'ils occupent. Car les mots sont semblables à la broderie qui orne une étoffe; chaque détail de la broderie doit être en harmonie avec l'ensemble du tissu; et les sages, dit-il, ont comparé le sens des écrits à la beauté des femmes, et les mots aux vêtements qui la parent.

Les mots eux-mêmes, d'ailleurs, un écrivain les trouve aisément: la difficulté réside dans leur arrangement: mettez les perles entre les mains de l'orfèvre, le difficile sera pour lui de composer le collier. La cornaline est jolie par elle-même, mais combien plus belle au cou d'une femme charmante! S'il veut produire quelque chose de beau, un auteur devra d'abord trouver un beau sujet. Il faut qu'un écrivain soit un homme juste et un sage; car la justice est l'âme des belles-lettres; et celui qui s'aviserait de traiter les choses légèrement n'obtiendrait aucun résultat; la sagesse demande des cœurs justes et équitables.

IV

L'écrivain doit fréquenter les savants et les lettrés, étudier avec soin les œuvres tant des anciens que des modernes, en connaître l'esprit, savoir par cœur poésies, nouvelles, histoire générale, afin d'enrichir sa poésie et de fournir au calame à la fois de la puissance et du charme. Il lui faut étudier les discours et les dialogues des Arabes, apprendre la logique, la littérature de la Perse, les traités des Persans et leurs proverbes, connaître aussi leurs manières d'agir et leurs ruses dans la guerre, et ne pas ignorer enfin, la grammaire, la philologie, et la versification.

Physiquement, un écrivain doit être de taille imposante, avoir des traits réguliers; sa voix doit résonner harmonieusement, et il faut que ses vêtements soient toujours propres et même élégants. Il importe que son âme soit douce, qu'il ait du bon sens et une expérience de la vie suffisante.

L'écrivain connaîtra parfaitement tous les milieux. Chaque classe sociale possède ses traditions, et rien ne serait plus ridicule de confondre des Califes... avec leurs ministres et de traiter de la même manière des secrétaires d'Etat et des généraux, par exemple.

Ibn-El-Mudabber ne cite pas les marchands ni les gens ordinaires comme correspondants dignes d'indication particulière, car, dit-il, ces gens là sont entièrement absorbés par les préoccupations de leur métier.

Mais pour les autres classes, comme toutes possèdent hiérarchie et tradition, il faut que l'écrivain en tienne soigneusement compte pour ne pas commettre d'erreur choquante. On a blâmé, par exemple, Al-Ahwas الأحوص pour avoir crû louer un roi par ces paroles: "Je vois que vous faites ce que vous dites, tandis que les autres ne tiennent pas leur parole et disent ce qu'ils ne font pas".

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم .مذق الحديث يقول ما لا يفعل

C'est là, en effet, une vertu digne de louange, de façon générale, mais est-il décent de louer un roi pour la posséder, pour dire la vérité et ne pas mentir? Dire la vérité et tenir ses promesses, c'est de la loyauté, sans doute, mais aussi un devoir et pour tous les hommes. On ne doit louer les rois que pour de belles actions qu'ils soient les seuls à pouvoir accomplir. Ira-t-on, par exemple, faire honneur à un souverain de ne pas courtiser la femme de son voisin, de ne pas trahir les secrets qu'on lui confie, de garder sa parole et de tenir ses promesses? Ce sont là cependant des qualités qui méritent l'éloge, mais à l'égard d'un roi il serait ridicule, car ce sont aussi des devoirs que chacun doit remplir, même dans les classes les plus modestes de la société.

V

Ibn El-Mudabber conseille à celui qui voudrait choisir le métier d'écrivain de consulter d'abord sa nature.

Pour bien écrire, il faut des dispositions particulières et presque une vocation; on forcerait en vain la nature, si elle est mal préparée, car il faut qu'un écrivain tire beaucoup de son propre fonds; celui qui compte sur la connaissance des œuvres d'autrui, ne mérite pas vraiment ce nom.

Que celui-là se méfie cependant, qui se sent des dispositions pour bien écrire; car, en général, chacun de nous est porté à l'indulgence envers soi-même. Qu'il examine sévèrement ce qu'il compose; la nature humaine est faible et vaniteuse et tout créateur contemple son œuvre avec les yeux attendris d'un père pour son fils, ou d'un amant pour l'aimée. Si l'on écrit une lettre, il faut la soumettre au jugement des hommes compétents, et sans en nommer l'auteur, bien entendu, la laisser discuter, éplucher; et si elle trouve grâce, on pourra l'achever.

Enfin, pour écrire de bonnes choses, il conviendra de choisir les moments où le cœur bat avec force, où l'âme est en pleine activité, car la nature ne livre le meilleur d'elle-même qu'aux heures ardentes où l'attire la violence du plaisir, ou la colère conquérante.

Un écrivain n'a pas le droit de prendre avec le langage régulier les libertés qu'à prises le Coran.

Parce qu'il s'est adressé à des Arabes de race pure, capables par conséquent de comprendre facilement n'importe quelles tournures de phrases, le Coran a parfois élidé des mots, supprimé des propositions entières; tandis qu'un écrivain qui s'adresse à des hommes souvent étrangers à la langue arabe doit éviter soigneusement les mots à sens amphibologique, et ceux qui ne sont pas assez précis.

VI

Ibn El-Mudabber attache beaucoup d'importance aux qualités matérielles du calame lui-même. Il donne à ce sujet, des renseignements qui semblent presque inutiles aujourd'hui qu'on achète tout préparé le matériel d'écriture. Cependant, je louerais volontiers mon auteur pour ces détails, comme d'une psychologie très subtile, lui et ceux qui avec lui ont traité cette question. Car un calame obéissant et souple entraîne l'esprit à merveille, et nous-mêmes aujourd'hui nous aimons à choisir telle plume plutôt qu'une autre, afin de rendre notre tâche plus agréable. On a même blâmé le célèbre poète contemporain Ahmad Chawky احمد شوقي pour avoir chanté les mérites de la plume Sadek ريشة صادق; on a crié à la réclame, et pourtant il est tout simple qu'un bon écrivain aime se servir d'une bonne plume.

La nature du papier retient aussi l'attention d'Ibn El-Mudabber; il le faut toujours d'excellente qualité, mais pour le format, chaque classe sociale a des traditions à cet égard. Une lettre officielle doit

être une feuille de dimensions, pour ainsi dire : rituelles. Nous n'ignorons pas d'ailleurs que ces traditions sont encore observées aujourd'hui. Enfin, il recommande de sécher l'encre avec de la poussière, avant de plier la lettre, . . . et de ne pas oublier de dater la lettre.

Ibn El-Mudabber conseille l'usage de l'invocation au Prophète ; c'est la saine tradition, et comme on le sait, les écrivains n'y ont renoncé qu'à la suite des Banou-Omayya qui l'avaient supprimée les premiers.

On doit commencer une lettre en indiquant brièvement ce que l'on compte développer ; les phrases de la fin doivent également préparer la conclusion.

Ibn El-Mudabber a donné des renseignements amusants à l'usage de ceux qui désirent décacheter une lettre sans l'abîmer afin d'en prendre connaissance, et de pouvoir la cacheter à nouveau sans qu'on puisse soupçonner qu'elle a été ouverte. Voilà qui nous en apprend assez long, sur l'importance des correspondances officielles dès ce temps là. Je crois bien, d'ailleurs, que de nos jours encore, le Cabinet Noir, fonctionne souvent ; par quels procédés ? Il est inutile de le dire, mais qu'on soit bien persuadé que les diplomates et les guerriers connaissent leur affaire !.

Ibn El-Mudabber déclare enfin que le métier d'écrivain est un bon métier ; il a tiré bien des hommes d'un milieu médiocre et grâce au Calame leur a parfois donné de la gloire.

VII

Je viens de faire une incursion rapide dans le texte de la Lettre-Vierge, mais il importe de lire attentivement l'original si l'on veut apprécier la valeur de ce petit chef-d'œuvre ; c'est ce texte que je présente revu, corrigé et commenté.

Nous allons maintenant examiner les points de contact qu'il est permis de trouver entre les idées contenues dans la Lettre Vierge et celles qu'ont exprimées les autres auteurs qui ont traité la même question.

A propos de l'invocation au Prophète الصلاة على النبي, Al Sôli en a parlé lui aussi; mais tandis qu'Ibn El-Mudabber indique seulement qu'elle était une tradition supprimée par les Banou-Omayya, Al-Sôli dit que l'habitude en fut instaurée par Haroun El-Rachid هرون الرشيد qui la recommanda, voulant par là faire une bonne action⁽¹⁾. Le premier n'a rien dit de "Basmala البسملة" c'est-à-dire de l'invocation à Dieu au début des lettres; Al Sôli nous donne, au contraire des renseignements précieux à ce sujet,⁽²⁾ ainsi que Ibn-Durustuyah⁽³⁾. On sait assez, par ailleurs, que dans les premiers siècles de l'Islam, les Arabes se sont montrés fort attachés à cette coutume de louer le nom de Dieu au début de leurs lettres, de leurs discours ou de leurs livres, et qu'on a blâmé par exemple Ziyad زياد lorsqu'il a prononcé, sans nommer Dieu ni le louer, le discours qui, à cause de cette omission, a été appelé: "Le Mutilé البتر". On a même été jusqu'à forger un *hadith* qui condamne toute œuvre qui ne commencerait pas par cette invocation.

De nos jours, la première leçon qu'on donne à l'Université d'El-Azhar, après la rentrée, traite souvent de cette question: les auteurs azharistes commencent, en effet, toujours leurs livres par El-Basmala, même quand ils écrivent sur les mathématiques ou la géographie. C'est une tradition qui me semble dirigée surtout contre les mauvais croyants qui volontiers traitent avec indifférence

(1) Adab El-Kuttâb كتاب الادب - p. 40.

(2) Adab El-Kuttâb - p. 31 et 32.

(3) Kitâb El-Kuttâb كتاب الادب p. 75.

les anciennes habitudes; il s'agit là évidemment d'un pur formalisme, mais il a une valeur profonde de psychologie. On doit en être assuré puisque l'usage n'en est fait que pour les œuvres sérieuses. Pour les recueils de poésie, on juge inutile de les placer sous l'invocation de Dieu, car d'après les conservateurs religieux, la poésie est un simple amusement.

Pour en revenir au discours de Ziyad, j'estime qu'il avait eu bien raison de ne pas le couronner par cette invocation qui est une marque de grâce et de tendresse, puisqu'il s'agissait-là d'une diatribe virulente contre les habitants de Basra البصرة débauchés et fauteurs publics de désordre. Louer Dieu, prier pour le Prophète me semblent une attention délicate qu'il faut réserver pour les cas où l'on s'adresse à des esprits réfléchis et sensibles; l'habitude ne subsiste plus aujourd'hui, d'ailleurs, que dans les milieux religieux.

VIII

Al-Sôli a lui aussi parlé longuement de l'encre et de l'encrier,⁽¹⁾ ainsi que des qualités du papyrus,⁽²⁾ de la fabrication du calame⁽³⁾; il a même traité ces questions moins superficiellement que ne l'a fait Ibn El-Mudabber, estimant comme lui qu'il n'est pas indifférent pour bien écrire d'avoir de bons instruments. Al-Sôli a même consacré un long chapitre à énumérer les lettres, les poèmes qui ont été composés à la gloire des bons calames. Jadis, les grands écrivains appréciaient le don d'un calame de bonne qualité à l'égal du plus précieux cadeau; et je crois bien qu'il doit en être aujourd'hui de même pour les stylos. Les anciens jugeaient un écrivain d'après ses outils et même, estimaient-ils qu'une mauvaise écriture était une maladie sans remède chez un homme dont c'est le métier d'écrire⁽⁴⁾. Une ligne devait être tracée avec régularité, car si les

(1) Adab El-Kuttâb, pp. 95-101.

(2) Ibid, p. 105.

(3) Ibid, pp. 69-70.

(4) Ibid, p. 52.

mots qui la composent la brisent elle ressemble au vers dont la mesure n'est pas juste ; les mots eux-mêmes prennent un aspect presque vulgaire et grossier⁽¹⁾ - Il est désagréable de voir un mot dont le dessin se trouve à cheval sur deux lignes⁽²⁾.

Ibn Durustuyah a donné des renseignements sur les usages qui avaient cours de son temps pour l'adresse des lettres. ⁽³⁾ Il fallait inscrire les deux noms de l'expéditeur et du destinataire : si le second était un homme plus considérable, on devait l'écrire en premier. Al-Sôli indique que tout d'abord on avait pris l'habitude de mettre la Basmala en tête de l'adresse, mais qu'elle a été abandonnée ⁽⁴⁾. Il se trouvait aussi des gens pour écrire leurs adresses en vers !.

Ibn El Mudabber a conseillé de ne pas écrire les signes et les points destinés à fixer la prononciation, sauf dans les cas où il peut y avoir amphibologie ; on doit alors employer l'orthographe régulière. Al-Sôli donne un conseil semblable. Il indique même qu'il faut toujours supprimer les points et les signes orthographiques quand on écrit à un chef ; car ce sont des gens qu'on doit tenir comme omniscients ; le chef, lui, pourra, au contraire employer signes et points quand il écrit pour ses attachés ou ses secrétaires, afin de préciser sa responsabilité. Il y a d'ailleurs d'autres personnes encore, ajoute Al-Sôli, qui préfèrent inscrire tous les signes orthographiques, de crainte d'erreurs graves dans la lecture. ⁽⁵⁾

Ibn-Durustuyah note que pour les philologues et les grammairiens c'est une obligation de mettre régulièrement les points et signes orthographiques, tandis que les écrivains de bureau peuvent les négliger, . . . à condition toujours, cependant, de les écrire pour les

(1) Ibid, p. 54.

(2) Ibid, p. 56.

(3) Kitâb El-Kuttâb, p. 97.

(4) Adâb El-Kuttâb, p. 144.

(5) Ibid p. 146.

mots qui changent de sens suivant la prononciation. Il importe enfin de dessiner complètement et correctement les mots que les gens du commun prononcent d'ordinaire mal.

Cette question de signes orthographiques me semble importante; elle est, comme on le sait une des critiques élevées contre les caractères arabes. On dit couramment que les mots écrits avec ces caractères peuvent se prononcer de plusieurs façons et présenter ainsi des sens différents; et c'est pour éviter cet inconvénient que les Turcs viennent d'adopter l'alphabet latin.

J'ignore quel succès a obtenu l'initiative des Turcs; mais ce que je sais bien, c'est que pour notre langue l'emploi de l'alphabet latin serait néfaste. Nous avons, en effet, deux sortes de voyelles; les grandes et les petites. Les grandes qui sont Alif ألف, waw واو, yâ ياء; les petites représentées par les signes qui fixent l'accent, c'est-à-dire damma ضمة, kasra كسرة, fatha فتحة.— Celles-ci, on ne pourrait les transcrire dans l'alphabet latin qu'avec la plus grande difficulté, et leur représentation compliquerait l'orthographe et la prononciation d'une manière considérable.

Pour éviter tant d'inconvénients, mieux vaut prendre l'habitude d'employer régulièrement les signes; ce n'est pas une très grande peine; et si on les inscrit, l'orthographe arabe reste plus facile et plus pratique que l'orthographe latine. Il est dommage que les anciens en aient délaissé l'obligation; ils avaient d'ailleurs une excuse, c'est qu'ils écrivaient pour des gens cultivés, et qu'un homme instruit n'éprouve jamais la moindre difficulté à lire des textes même entièrement dépourvus de signes d'accentuation; mais aujourd'hui la situation se présente très différente. La langue arabe veut

(1) Adab El-Kuttâb, pp. 57-58.

(2) Kitâb El-Kuttâb p. 57.

s'adresser même aux peuples étrangers ; il importe donc d'employer une orthographe "intégrale" qui facilite la lecture et la prononciation ; ce progrès hâterait grandement la diffusion de l'arabe dans le monde.

Les Arabes nomment "chakl شكلي" ces signes-là, n'est-ce pas curieux ? Le mot signifiait originellement la corde avec laquelle on attache un animal un peu sauvage pour éviter qu'il ne s'enfuit ; on l'a pris dans un sens figuré pour indiquer le lien qui fixe chaque mot à sa signification authentique.

Les orientalistes auront avantage à utiliser le chakl régulièrement. Son emploi facilitera leur noble tâche.

IX

Ibn-Durustuyah a parlé de l'expression "سلام عليك" Selon lui, aurait existé de son temps une interprétation subtile de cette formule : sous la forme : "سلام عليك" elle était une salutation pour les vivants ; mais inversée sous la forme "عليك سلام" elle devenait un salut pour les morts. Les poètes seuls, prétend-il, confondent quelquefois les deux formes pour des besoins de mesure ou de rime, mais c'est le Prophète lui-même, à son dire, qui a engagé ses partisans à observer cette distinction (1).

Ibn El-Mudabber a parlé, nous l'avons vu, des prières par lesquelles on commençait les lettres. C'est une question fort délicate. A l'origine de la langue les formules d'invocation étaient très voisines l'une de l'autre ; cependant on faisait communément la différence entre "أطال الله بقلبي" et "أبقاك الله طويلاً" Al-Sôli nous apprend que la première devait être rejetée comme ayant été forgée par les

(1) cf. Kitâb El-Kuttâb, pp. 75 et 76. voir également الفواكه الدواني، شرح رسالة الفيرواني — ص ٢٤١ ج ١

(2) Adab El-Kuttâb pp. 172-173.

manéchéens “ الزنادقة ” ; il nous donne des renseignements très précieux à ce sujet, car il va chercher des arguments jusque chez les premiers califes et le Prophète lui-même.

Mais, le raisonnement m'apparaît un peu faible ; évidemment les hommes de ce temps-là ne pouvaient rien considérer que sous l'angle de la religion. Dès l'instant qu'une expression avait été inventée par le Prophète ou l'un de ses proches, elle devenait intangible, sacrée. C'était de quoi paralyser notre langue et la priver de toute faculté d'évoluer.

Que l'on conserve les termes rituels de prières purement religieuses, rien de plus naturel ; mais j'admets moins facilement qu'on doive s'en tenir obligatoirement aux termes qui ont pû avoir échappé au Prophète dans des entretiens familiers ; il m'apparaît fort improbable, en effet, que le Prophète ait songé à donner à chacune de ses conversations quotidiennes le caractère sacré d'un enseignement religieux. Il est d'ailleurs à remarquer que toutes les langues développées présentent des subtilités analogues dans l'emploi de telle ou telle expression ; mais ces traditions s'appuient sur le génie lui-même de la langue, logiquement, et non pas sur des traditions religieuses interprétées par des esprits étroits.

En fait, les rhéteurs qui ont codifié ces subtilités n'avaient aucun pouvoir pour lutter, le cas échéant, contre l'usage établi. C'est ainsi qu'Ibn - El-Mudabber par exemple a critiqué et raillé l'expression : “ جمعت فداك ! ” ; cela ne l'a pas empêché de l'utiliser lui-même à différentes reprises dans ses vers⁽¹⁾ Al-Sôli blâme l'emploi de “ أطال الله بقاءك ! ” mais en même temps il avoue que tout le monde l'utilise⁽²⁾.

Pourquoi ne l'eût-on pas employé agréablement après tout ? Parce qu'on la devait à des athées ?

(1) El-Aghani, p. 118-121, vol. 19.

(2) Adab El-Kuttâb, p. 172.

Mais ceux qu'on appelle *كُتَّابَة* chez les anciens Arabes, étaient, il faut le dire, des lettrés dont la culture était admirable; peut-être avaient-ils le droit et même le devoir d'enrichir leur langue? Qu'on laisse donc se développer, et librement évoluer un langage en notant simplement, si l'on y tient, quels sont les auteurs responsables de telle expression heureuse!

Les considérations d'Ibn El-Mudabber et d'Al-Sôli sur ce sujet ne peuvent nous apparaître que comme les premières étapes de la critique philologique. Nous n'avons pas besoin d'ajouter qu'aujourd'hui ces arguties scholastiques sont loin, et que les écrivains arabes de nos jours jouissent, à l'égard de leur langue, d'une pleine et entière liberté.

X

Al-Sôli a traité la question du cachet: *الخاتم*

Les Arabes antéislamiques ne le connaissaient pas, nous dit-il. C'est le Prophète qui l'a introduit chez eux, du jour où il eût appris que les rois n'acceptent pas une lettre qui ne porte pas de cachet⁽¹⁾. Dans les premiers siècles de l'Islam, les ministres seuls pouvaient cacheter leurs lettres: leurs secrétaires n'avaient pas ce droit; lorsque l'un d'eux était amené par hasard à se servir du cachet, il devait par modestie signer sur le côté gauche de la lettre. De même au début il n'y avait pas de bureau particulier pour le sceau. C'est à Mo'awia *معاوية* qu'en est dûe la création⁽²⁾.

Avant lui, les rois conservaient leur cachet dans un coffre, et autorisaient au besoin leurs ministres à s'en servir.

Ibn Durustuyah a parlé de l'expression "*أما بعد*", mais pour en donner seulement des commentaires grammaticaux⁽³⁾. Al-Sôli

(1) Adab El-Kuttâb, p. 139.

(2) Ibid, p. 141.

(3) Kitâb El-Kuttâb, pp. 76 - 77.

l'a discutée aussi et noté que c'est كعب بن لؤي qui l'a forgée⁽¹⁾ ! Il s'agit, en tous cas, d'une mode très ancienne et qui s'est prolongée jusqu'à nos jours; elle commence cependant à tomber en désuétude.

Ibn El-Mudabber, nous l'avons vu, a rappelé quelques principes au sujet de la date à inscrire sur les lettres.

Ibn Durustuyah a été plus explicite sur la question⁽²⁾ Al-Sôli l'a également traitée d'une manière détaillée⁽³⁾. D'après les renseignements fournis par eux, les Arabes n'indiquaient pas la date au moyen des chiffres, en ce temps-là, mais par une notation assez compliquée.

Al-Sôli nous indique aussi que les *lakab* الألقاب n'ont été ajoutés aux noms que plus tard; on sait que les *lakab* sont des qualificatifs que les califes joignaient à leur titre. Dans les discours prononcés en public: on priait pour le calife régnant, mais sans ajouter son *lakab*; c'est pour Mohamad El-Amin محمد الأمين le premier qu'on a joint au nom le *lakab*. Après lui, la tradition s'est établie⁽⁴⁾.

On a souvent insisté avec raison sur l'importance alors du métier de rédacteur; le kateb الكاتب, dit-on, possédait tout en réalité, puisque c'était lui qui calculait et répartissait les impôts, le Kharag الخراج. Les rhéteurs n'ont pas à s'occuper de ce point là, préoccupés qu'ils sont de formuler les règles pour l'art d'écrire; cependant Al-Sôli nous a laissé un excellent chapitre sur les avantages de ce métier, et il a évoqué avec des éloges le souvenir de ces Koraïchites قریش, cités dans la Bible comme des écrivains et des calculateurs de premier ordre⁽⁵⁾. Dans un autre chapitre, il a résumé les connaissances qu'on avait alors sur le calcul, et cité à ce sujet quelques anecdotes⁽⁶⁾.

(1) Adab El-Kuttâb, p. 36.

(2) Kitâb El-Kuttâb, pp. 77-81.

(3) Adab El-Kuttâb, pp. 178-185.

(4) Adab El-Kuttâb, p. 41.

(5) Ibid, p. 28.

(6) Ibid, p. 238.

Il semble que les premiers Arabes écrivaient leurs lettres en un seul exemplaire : d'après Al-Sôli ce serait Ziyâd زياد qui le premier aurait fait plusieurs copies de ses lettres (1).

On ne connaissait pas encore le métier d'expert الخبير en écritures. Solaïman ibn-Wahb سليمان بن وهب serait le premier à avoir fait quelque chose d'approchant. Ayant examiné une certaine lettre il suppose qu'elle avait été écrite par un faussaire; il dicta donc à la personne qu'on soupçonnait le même texte; le scribe jura ne l'avoir jamais écrit auparavant. Bien entendu, en prenant la dictée, il avait eu soin de modifier sa manière d'écrire. Mais Solaïman Ibn - Wahb n'en reconnut pas moins qu'il était bien l'auteur de la première lettre examinée; et comme on lui demandait comment il avait acquis cette certitude, il répondit que le faussaire, malgré sa volonté de masquer son écriture, n'avait pu s'empêcher de former certaines lettres comme il en avait l'habitude naturellement, et que cela avait suffi pour le trahir (2).

Toutes les règles de l'art de bien écrire que nous venons d'analyser appartiennent, cela va sans dire, au seul style des lettres officielles, ou plutôt des lettres d'affaires. Quant aux missives privées, les Ikhwaniyat الإخوانيات comme on les appelle, il n'existe pas de règles pour elles. On parle avec un ami en toute liberté (3).

Mais c'est assez prolonger cette comparaison entre les œuvres d'Ibn - Durustuyah et d'Al-Sôli et la Lettre Vierge d'Ibn El-Mudabber. Pour nous résumer, nous dirons que le livre du premier traite la question à un point de vue grammatical et philologique; le second l'examine sous l'angle des connaissances générales nécessaires à l'écrivain; la Lettre d'Ibn-Mudabber, enfin, étudie les subtilités d'ordre artistique ou social qui ont trait à la correspondance officielle.

(1) Ibid, p. 44.

(2) Adab El-Kuttâb, p. 44.

(3) Ibid, p. 236.

XI

Ahmad Ibn 'Abd Rabbih أحمد بن عبد ربه a fourni dans son ouvrage: *Al-'Ikd El-Farid* العقد الفريد des indications fort intéressantes sur l'art d'écrire et les différentes manières qu'on remarque chez les écrivains. Les renseignements qu'il nous donne représentent assez exactement les connaissances générales qu'on avait de son temps sur la matière, après avoir nommé celui qu'il considère comme l'inventeur de l'écriture et de l'alphabet, il énumère les diverses façons de commencer une lettre, de la cacheter, d'y inscrire la date et l'adresse. Il met en lumière la valeur et l'importance sociale du métier d'écrivain et cite un grand nombre de ceux parmi les meilleurs qui occupèrent le poste de secrétaires auprès des Califes Abou-Bakr أبو بكر, 'Omar عمر, 'Othman عثمان et 'Ali علي. Il y joint les noms de ceux qui ont rempli le même rôle chez d'autres personnages importants, et termine en parlant de ceux auxquels leur métier a conféré une véritable puissance.

On trouve, également, dans son ouvrage des aperçus curieux sur les qualités nécessaires à l'écrivain, remarquons ici en passant que le mot *kateb* كاتب se traduirait plus exactement peut-être pour cette époque là, par scribe, ou encore, dans certains cas par: commis aux écritures. Ibn 'Abd Rabbih parle aussi de l'éloquence, mais s'intéresse de même à des détails matériels, au calame, ou à l'encre qu'il convient d'employer.

Il décrit les *tawki* الوقوفات, ces réponses brèves qui condensent beaucoup de sens en peu de mots; il donne enfin comme exemples-afin d'illustrer les observations,- de très nombreuses lettres fort intéressantes.

Les cinquante-cinq pages ainsi consacrées par Ibn 'Abd Rabbih à l'art d'écrire sont aujourd'hui pour nous des documents précieux; mais on aurait tort d'y chercher autre chose que l'œuvre d'un compilateur habile, et par exemple de l'originalité.

Quand il cite Isma'ïl Ibn Ibrahim اسماعيل بن ابراهيم comme l'inventeur de l'écriture, il répète évidemment un on-dit et ne se préoccupe guère d'apporter des preuves de même lorsqu'il affirme qu'au temps où naquit l'Islam, on ne trouvait pas plus d'une quinzaine de personnes qui sussent écrire. Il les énumère et donne leurs noms, mais comme tous appartenaient au milieu Koraichite, l'argument est médiocre pour la société arabe, en général.

On ne saurait douter, en effet, que la majorité des Arabes fût, alors, illétrée; mais ne faut-il pas se souvenir également que les historiens musulmans ont toujours eu à cœur de dénigrer l'époque antéislamique afin de donner à l'Islam le caractère d'une transformation plus rayonnante et de montrer vraiment la croyance nouvelle comme la lumière, qui dissipe les ténèbres? Certes, l'Arabie doit sa gloire à l'Islam; mais nous ne devons pas oublier que l'ère antéislamique en avait été la préparation et qu'elle avait même présenté les caractères d'une véritable Renaissance.

Il semblerait à bien entendre Ibn 'Abd Rabbih que le métier de secrétaire eût été alors assez sujet à cautions et que ceux qui le faisaient manquaient parfois de moralité.

Il s'étonne par exemple qu'Al-Hasan El-Basri الحسن البصرى ait occupé un pareil poste malgré sa naissance noble, ses scrupules et son désintéressement;⁽¹⁾ pour Al-Ch'abi الشعبي, il fait la même remarque!⁽²⁾

L'observation devait être juste; comment en être surpris d'ailleurs? Le métier abondait en tentations périlleuses; c'étaient les commis, en effet, les écrivains, qui répartissaient l'impôt et par là tenaient le peuple à leur merci; car il n'existait pas alors chez les Arabes de règle générale et fixe pour les impositions; tout était laissé au bon plaisir des secrétaires d'Etat. Aussi rencontre-t-on

(1) Al-Ikd El-Farid العقد الفرید vol. 3, p. 9.

(2) Ibid - - 3, p. 10.

constamment chez les auteurs d'alors le conseil de vivre en bons termes avec ces personnages puissants.

Mais il y avait autre chose aussi. Les écrivains étaient alors réputés comme libres-penseurs et libertins. Les hérésies audacieuses, c'est dans leurs divans qu'elles prenaient naissance : les poèmes licencieux, les lettres légères et charmantes qui chantent l'amour et la beauté dans toutes leurs manifestations, c'est encore de là qu'ils sortaient; en un mot, toutes les attaques contre l'Islam, toutes les atteintes à sa tradition s'élaboraient dans ces bureaux.

Ibn 'Abd Rabbih nous a renseigné sur les conditions dans lesquelles fut changée l'habitude d'employer la langue grecque pour les calculs; il nous apprend que c'est Solaïman Ibn Sa'd سليمان بن سعد qui proposa à 'Abd El-Malek ibn Marwan عبد الملك بن مروان l'abandon du grec pour adopter l'arabe⁽¹⁾, et que Kahzam قحزم réalisa une réforme analogue en substituant également l'arabe au persan.⁽²⁾

Les détails qu'il nous donne sur les diverses catégories de scribes sont bien curieux aussi. On trouvait des écrivains pour la correspondance, des commis chargés des impôts, d'autres affectés à l'armée; certains s'occupaient de la police et autres des tribunaux. Chacune de ces spécialités réclamait une culture particulière; les écrivains de lettres, par exemple, devaient connaître à fond les subtilités de la langue, afin de pouvoir correspondre aussi bien avec un souverain qu'avec les particuliers. Les commis aux impôts ne devaient pas ignorer le calcul, l'agriculture, non plus que la valeur d'estimation du bétail ou des bijoux; ceux de l'armée étaient des calculateurs; ceux de la police connaissaient la juridiction criminelle, tandis que ceux des tribunaux devaient être experts sur toutes

(1) Ikd vol 3 page 10

(2) Ibid „ „ „ 11

les questions qui concernent les droits religieux et particulièrement les héritages. (1)

Voilà qui nous intéresse pour l'organisation administrative du monde arabe, à cette époque, l'auteur d'Al-'Ikd n'a rien dit du costume qui distinguait ces spécialistes entre eux, mais nous savons par ailleurs, que leur tenue n'était pas uniforme; et notamment, d'après Al-Gahiz الجاحظ que les commis aux armées portaient des vêtements spéciaux et n'avaient droit pour montures qu'à des ânes, même quand les mulets étaient nombreux.(2)

XII

Il nous reste à faire ressortir un fait important: Ibn 'Abd Rabbih s'est beaucoup servi de la Lettre Vierge, الرسالة العذراء, mais sans la citer expressément. L'auteur des extraits ne serait pas Ibrahim Ibn Mohammad Ibn El Mudabber, ابراهيم بن محمد بن المدبر, mais bien Ibrahim Ibn Mohammad Al Chaïbani. (3) ابراهيم بن محمد الشيباني

Les extraits d'Ibn 'Abd Rabbih sont parfois un peu plus détaillés. Qui était donc cet Ibrahim Al Chaïbanî ?

J'ai cherché l'an dernier, à retrouver sa biographie, je n'y suis pas parvenu. Je suppose cependant qu'il a dû vivre dans la dernière partie du III^e siècle. Car il se réfère souvent à Al Gahiz, الجاحظ, comme nous l'avons indiqué dans la notice qui accompagne le texte arabe.

(1) Ibid vol 3 page 14 et 15. voir également Sobh et A'cha الأعمى p.142 vol 1 Certains auteurs donnent au mot Kateb ce sens d'employé de bureau. D'autres au contraire, comme l'auteur de سلوك الممالك ، في تدبير الممالك, l'emploient avec le sens qu'on donnait en France au mot : commis, au XVII^e siècle. Colbert était un *commis* aux finances, comme Louvois à la guerre.

(2) Al Bayan vol. 3 page 60

(3) cf les 11-12-19

Au début de la présente introduction, nous avons constaté que les preuves formelles manquent pour attribuer de façon suivie la Lettre vierge à Ibn El Modabber. Quelques mots d'Al Soli, *الصولي* seulement établissent qu'il s'était occupé de l'art d'écrire.

Nous allons donc arriver à cette conclusion c'est que deux noms peuvent également être mis en avant comme ceux de l'auteur de ce morceau : Ibn El Modabber et Al Chaïbani. Chacun d'eux s'appelait aussi Ibrahim Ibn Mohammed; et ainsi s'est produite la confusion, sans doute.

Quant à la lettre Vierge, en elle-même, son intérêt n'en est pas diminué par cette imprécision; il est dommage seulement qu'elle ressemble, trop par là à ce poème arabe dont soixante dix poètes, sans plus, prétendaient être l'auteur.

XIII

Il nous reste à jeter un coup d'œil sur ce qu'Al-Gahiz a écrit à ce sujet.

Nous remarquerons d'abord que le style d'Ibn El-Mudabber ressemble beaucoup à celui d'Al-gahiz. On trouve même dans la Lettre Vierge certains paragraphes qui sont empruntés à l'œuvre d'Al-gahiz en particulier ceux dans lesquels il définit l'éloquence.⁽¹⁾ Ces emprunts s'expliquent d'eux-mêmes; d'abord parce que l'œuvre d'Al-gahiz était accessible à tous, et ensuite parce que ce dernier étant l'ami intime d'Ibn El-Mudabber, celui-ci devait être tenté de le suivre ou plutôt de l'imiter.

L'œuvre d'Al-gahiz est longue et de pensée profonde; elle mérite une étude particulière. Nous allons donc nous borner ici à examiner son avis sur une question qu'ont omise aussi bien Ibn Durustuyah, que Al-Sôli ou Ibn El-Mudabber : celle de la rime en prose: *السجع*

(1) Cf. Al-Bayan *البيان والتبيين* p. 90-91 — vol. 1.

J'insiste sur cette question, parce que là-dessus je ne saurais partager l'opinion de Mr. Marçais non plus que celle de Mr. Taha Hossein طه حسين. Ces deux éminents professeurs de la littérature arabe affirment que la mode de la prose rimée ne s'est vraiment développée qu'à partir du IV^e siècle de l'hégire.—Ma thèse est au contraire, que cette mode est excessivement ancienne. Le Coran, qu'on peut considérer littérairement comme le plus ancien et le plus authentique ouvrage de l'époque de la prophétie et qui touche encore à l'ère antéislamique, rime souvent. Les discours des Kahen الكهان, des prêtres de cette période antéislamique étaient rimés, on en convient.

J'affirme que l'habitude s'en est continuée après le Coran ; j'en suis sûr, d'abord parce que c'est naturel et aussi parce que nous en pouvons contrôler les traces.

Mr. Marçais est d'avis qu'elle a passé de mode au temps des Banou-Omayya, il me disait même un jour en Septembre 1929 ; qu'Ibn-El-Mokaffa ' ابن المقفع, ignorait ce qu'est un Sag ' سجع. Je crois au contraire, qu'il le savait très bien, puisqu'il a dit lui-même, qu'on peut trouver de l'éloquence dans une rime⁽¹⁾ d'ailleurs en fait, il rimait quelquefois⁽²⁾. Bachar Ibn Bord بشار بن برد, était également connu pour rimeur⁽³⁾.

Ibn El Athir ابن الأثير nous dit que le Coran a deux manières de balancer les périodes : la première est le sag ' السجع ; la seconde la *moizana* الموازنة⁽⁴⁾. Or nous savons très bien que le balancement des phrases par la *moizana* produit sur la construction générale de la période le même effet que la rime.

(1) Cf. Al-Bayan p. 91. vol. I.

(3) Zahr El-Adâb. p. 121. vol. 2.

(2) Adab El-Kuttâb. p. 68.

(4) Al Mathal El Saer المثل السائر p. 170

Abou Hilal El-'Askari أبو هلال العسكري nous apprend que le Prophète rimait lui-même, mais qu'il évitait cependant de le faire lorsqu'il estimait que la rime risquait de fausser le sens de la phrase (1).

Il nous dit, autre part, que la prose rimées est d'autant plus estimée qu'elle reste agréable et naturelle. (2)

Ibn Khafaga ابن خفاجة dans son remarquable ouvrage intitulé: Serr El-Façalia, سر الفصاحة dont le manuscrit se trouve à la Bibliothèque Egyptienne a étudié cette question de la manière la plus profonde. D'après lui, la plupart des écrivains avaient adopté la mode d'Al-Sag'; seulement les uns rimaient régulièrement tandis que les autres ne le faisaient qu'occasionnellement et suivant les circonstances. (3)

Les rimes recommandables sont, à son avis, celles qui viennent compléter le sens, l'étayer et le renforcer.

Sont mauvaises, au contraire, celles que l'écrivain accumule automatiquement, sans autre souci que de donner de la sonorité à sa prose et sans s'inquiéter du sens.

Al-gahiz cite de temps en temps des exemples de prose rimée; il semble considérer ce mode d'écriture comme un art précieux. et même il a défendu la rime dans la prose d'un point de vue théorique. D'après lui, aux premier et deuxième siècle les Kossas القصاص rimaient dans leurs Kaças قصص (4); on connaît ces lettrés fameux qui s'en allaient dans les mosquées pour y donner des conférences publiques, et sur tous les sujets. Leur culture était tellement vaste, en effet, qu'ils pouvaient parler sur l'histoire générale, la littérature, la jurisprudence et aussi commenter le Coran aussi bien que les traditions

(1) At-Sin'atatu الصنائع p. 201.

(2) Ibid p. 109.

(3) p. 184 à 190.

(4) Al Bayan. p. 192-196. vol. 2 (ed 1929).

du Prophète. Je n'affirme pas qu'ils rimaient régulièrement, quel que fût le sujet de leurs discours, mais je suppose qu'ils devaient, suivant en cela l'exemple du Coran employer la rime quand ils traitaient un thème pathétique et cherchaient à toucher les coeurs.

Je n'ignore pas d'ailleurs, qu'il existait alors une école hostile à la prose rimée pour le motif que les Kahen l'avaient adoptée ; mais c'est précisément parce que cette prévention existait qu'Al-gahiz a défendu avec chaleur cette manière d'écrire en rappelant que le Coran rime souvent et que le Prophète lui même rimait.

Il me faut noter ici qu'Al Gahiz rimait également⁽¹⁾ mais sans s'y astreindre régulièrement ; enfin, Je dois répéter qu'on peut trouver de la prose rimée chez beaucoup d'écrivains des trois premiers siècles. On admet même que la mode en était répandue chez les Bédouins : الأعراب

Aujourd'hui, on ne la rencontre plus que rarement ; il y a là une réaction naturelle contre l'abus qu'on en a fait après le IV^e siècle, et les écrivains modernes considèrent le procédé comme parfaitement banal. On peut la trouver cependant chez les auteurs qui désirent exprimer quelque chose de sentimental ou donner à leur langue un tour artistique.

Ahmad Chawki احمد شوقي et Hafiz Ibrahim حافظ ابراهيم par exemple, riment souvent : même en prose. Mais ce sont des poètes qui se plaisent à orner leurs phrases avec la sonorité de la rime.

Zaki Mubarak

Paris le 11 Septembre 1930

(1) Lettres. p. 5.